

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

MINISTERE DE L'ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE
SCIENTIFIQUE

جامعة محمد بوضياف - المسيلة -

Université Mohamed Boudiaf de M'sila

الميدان: العلوم الاجتماعية

التخصص: فلسفة عامة



كلية: العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم: الفلسفة

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر أكاديمي

إعداد الطالب(ة): بوبكر عبد النور

تحت عنوان:

سؤال الإنسان في فلسفة مالك بن نبي

لجنة المناقشة:

رئيسا	جامعة محمد بوضياف - المسيلة -	/د
مشرفا ومقرا	جامعة محمد بوضياف - المسيلة -	/د لخضر حميدي
مناقشا	جامعة محمد بوضياف - المسيلة -	/د

السنة الجامعية: 2021/2020

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وعرفان

الحمد لله السميع العليم ذي العزة والفضل العظيم
والصلاة والسلام على المصطفى الهادي الكريم وعلى آله
وصحبه أجمعين، وبعد: مصداقا لقوله تعالى " ولئن شكرتم
لأزيدنكم " ، أشكر الله العليّ القدير الذي أنار لي درب
العلم والمعرفة وأعانني على إنهاء هذا العمل
كما أتقدم بالشكر والامتنان للدكتور "خضر حميدي"
لقبوله الإشراف على هذه الدراسة والذي لم يَخِر وسعا
في تقديم النصيحة والتوجيه لي طيلة إجراء هذه الدراسة
من خلال إرشاداته القيمة في كل خطوات البحث، ولا
يفوتني أيضا أن أتقدم بشكري وامتناني إلى أساتذتي
الأفاضل بكلية العلوم الإنسانية ، والشكر أيضا للمناقشين
الذين تفضلوا بقبول مناقشة هذه الدراسة.

إهداء

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه سبحانه لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت
على نفسك خلقت فأبدعت، وأعطيت فأفضت فلا حصر لنعمك ولا حدود
لفضلك، وصلى الله وسلم على أشرف عبادك وأكمل خلقك خاتم المرسلين محمد بن
عبد الله الأمين خير من علم وأفضل من نصح.

إلى من أفضّلها على نفسي، ولم لا؛ فلقد ضحّت من أجلي

ولم تدّخر جهداً في سبيل إسعادي على الدوام (أمّي الحبيبة)

إلى خالد الذكر، الذي وافته المنية، وكان خير سند وقوتي في الحياة،

والذي لم يتهاون يوم في توفير سبيل الخير والسعادة لي.. إلى أبي رحمه الله

إلى إخوتي وأخواتي حفظهم الله ورعاهم.

إلى من ساندتني وخطت معي خطواتي إلى زوجتي

إلى زهراتي وفلذات كبدي "تسنيم، إيناس" وبلسم حياتي "ماهر عبد الرؤوف"

إلى المليون ونصف المليون شهيد

إلى شهداء فلسطين، إلى المرابطين في المسجد الأقصى

إلى أستاذي "الدكتور لخضر حميدي"

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع



الملخص: يتناول هذا البحث مناقشة موضوع: "سؤال الإنسان والحضارة عند مالك بن نبي من خلال الدراسات المعاصرة - التأصيل والأبعاد - فقد أصل رحمه الله لمفهوم الإنسان ومشكلات الحضارة والظاهرة الاستعمارية انطلاقاً من رؤية فلسفية حضارية شاملة ومتكاملة ذات بعد أخلاقي قوامها روح الإسلام وفعالية الغرب، فقد اعتبر مالك بن نبي أن الإنسان هو المحور الذي يدور عليه الواقع منه المبدأ وإليه ينتهي وأنه مقياس الحضارة، فصلاح الحضارة وفسادها يقاسان بمدى النفع أو الإضرار به، كما أن له إرادة حرة اختص بها انطلاقاً من التكريم الإلهي له منتقداً بذلك النظرة الغربية لمفهوم الإنسان والحضارة، أمام الصراع الفكري القائم بين اتجاهات الفكر المادي والديانات السماوية في أوربا، الشيء الذي جعل الحضارة الغربية ذات البعد الواحد تتنحى عن المسار الفطري للإنسانية، رغم ما قدمته من خدمات فقد عاجلت قضايا الجهل والجوع والمرض ببلادها، وتصدقت ببعض منجزاتها على البشرية بعد أن امتصت ثروتها الباطنية والظاهرية في البلاد التي استعمرها أربابها وقادتها.

Résumé: La présente étude traite du thème de "La philosophie de l'homme" et de la civilisation chez Malik bin Nabi à travers les études contemporaines - enracinement et dimensions. Malik bin Nabi, qu'Allah lui fasse miséricorde a proposé le concept d'homme et de civilisation à partir d'une vision philosophique globale et intégrée, basée sur une dimension morale islamique et sur l'efficacité de l'Occident. Il considère donc l'homme comme l'élément central sur lequel se fonde la réalité. L'homme est la source du principe ainsi que sa cible et son critère. La bonté et la corruption de la civilisation se mesurent au bénéfice ou au tort causé à l'homme puisque celui-ci a un libre arbitre qui lui est propre à partir d'une reconnaissance divine. Malik bin Nabi critique la vision occidentale de l'homme et de la civilisation en relation avec le choc intellectuel entre les courants de la pensée matérialiste et les religions divines en Europe. Il aborde également la question du colonialisme et de la volonté des peuples de l'accepter, en critiquant la civilisation occidentale, qui s'est éloignée de la nature humaine. Ceci est également soutenu par le témoignage des grands penseurs occidentaux malgré les services de leurs pays qui combattent l'ignorance, la famine et les maladies. L'humanité a également bénéficié des progrès réalisés par l'Occident, qui a exploité toutes les ressources de ses colonies.

فهرس المحتويات

الصفحة	قائمة المحتويات
I	شكر و تقدير
II	إهداء
III	فهرس المحتويات
IV	فهرس الأشكال
أ- خ	مقدمة
<u>الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان</u>	
09	تمهيد
10	المبحث الأول: المرجعية الفكرية لمشروع مالك بن نبي.
21	المبحث الثاني: الإنسان في الفلسفة اليونانية والفلسفة الغربية (أرسطو- ماركس).
29	المبحث الثالث: الإنسان عند مالك بن نبي.
37	خلاصة الفصل
<u>الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.</u>	
32	تمهيد
33	المبحث الأول: مركزية البعد الثقافي في مشروع مالك بن نبي (المشكلة الثقافية عند مالك بن نبي).
45	المبحث الثاني: المجتمع المتحضر من منظور مالك بن نبي.
54	المبحث الثالث: مالك بن نبي وثلاثية الحضارة (الإنسان - التراب - الزمن).
62	خلاصة الفصل
<u>الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي.</u>	
64	تمهيد
65	المبحث الأول: الرؤية الإسلامية للمعرفة عند مالك بن نبي (كيف نظر مالك بن نبي إلى المعرفة).
78	المبحث الثاني: أبعاد النظرية التربوية في فكر مالك بن نبي.
89	المبحث الثالث: رؤية نقدية لمشروع مالك بن نبي الحضاري .
95	خلاصة الفصل
97	خاتمة عامة
102	قائمة المصادر والمراجع
110	ملاحق

فهرس الجداول و الأشكال البيانية

فهرس الأشكال

الصفحة	عنوان الشكل	رقم الجدول
45	مخطط توضيحي لمراحل الحضارة	شكل رقم 01-1

مقدمة عامة

إن مالك بن نبي شخصية فذة دخلت التاريخ من بابه الواسع، فهو يعتبر أحد رواد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين، حيث يرى كثيرون أنه امتداد لابن خلدون، إذ برز في التنبيه إلى ضرورة العناية بمشكلات الحضارة، وكان لافتاً تنبؤه بأن إرثه سيعود إلى الحياة بعد عقود من وفاته، وقد رسم لنفسه منهاجاً خاصاً في بحث مشكلة المسلمين على أساس علم النفس والاجتماع وسنن التاريخ.

انشغل مالك بن نبي بهوم أمته العربية والإسلامية، واحتل الهم الجزائري الحيز الأكبر من كتاباته، ولقد أحدث نقلة نوعية في الفكر الإسلامي الحديث، فلقب بألقاب عديدة منها "فيلسوف العصر" و"فقيه الحضارة" و"منظر النهضة الإسلامية".

فرض الواقع على الإنسان التساؤل دوماً عن مختلف جوانب هذا الواقع الذي نعيشه ليزداد فهماً وإدراكاً له من أجل الوصول على الأفضل والأحسن، ولتأمين رفاهه المادي والمعنوي، لذا كان الإنسان دائماً مفكراً في هذا الواقع للاستزادة في فهمه وإدراكه من أجل تجميع معارف متعددة عن الطبيعة وعن المجتمع، وعن الإنسان نفسه وعن الذات الإنسانية، وإن الاهتمام بهذه الأخيرة كان اهتماماً كبيراً، حيث ظهر مبحث في الفكر اليوناني والغربي، إذ بدأت تراح تدريجياً فكرة الكائن المتعالي لتحل محلها فكرة الإنسان الباحث عن السعادة على هذه الأرض، ومنذ ذلك التاريخ لم يغب مبحث الإنسان في أية فلسفة أو حضارة، مع فرق في أطروحات كل فلسفة وتناولها للشأن الإنساني فالفلسفة الغربية واليونانية تناولت العديد من المفاهيم المختلفة لتعريف الإنسان، من خلال شخص ما لوصف كيفية قيام العالم ببناء عالمه العلمي الصغير من خلال أنشطة البحث في تاريخ الفلسفة الغربية، حيث تميز أرسطو بتعريف الإنسان بين الحكمة النظرية والحكمة العملية، حيث عرف الإنسان على أنه حيوان عاقل، وقد شدد بشكل متكرر على أنه يعتبر العقلانية هي السمة المميزة الحاسمة للبشر، وماركس يعرف الإنسان على أنه مخلوق اجتماعي يمكنه أن يتطور فقط في المجتمع.

أما الفلسفة الإسلامية تناولته بواقعية أكثر، فبحثت في مشكلة الحرية والمسؤولية ومشكلة الحكم.... لتبقى هذه المحاولات تؤشر على البدايات الفعلية للاهتمام بالإنسان وقضاياها،

فُعِرِفَ الإنسان وفقاً للمنظور الإسلامي على أنه كيان يتكون من ثلاث عناصر وهي الجسد والعقل والروح، ويلبي الإسلام الحاجات الجسدية والفكرية والروحية، وأنّ الإنسان قادر على الحفاظ على التوازن والاعتدال بينهم، وقد ذكر بالقرآن الكريم كلمات تعبر عن الطبيعة البشرية مثل القلب والفؤاد، وتؤدي وظائف عقلية في جسم الإنسان.

كما نجد مالك بن نبي أيضا قد أولى اهتماما كبيرا و عميقا بالإنسان بصفة عامة والإنسان المسلم بصفة خاصة متابعا في ذلك علله و نقائصه و محلا لأبعاد الظاهر و المشكلات المحيطة به ، و مقترحا الحلول المناسبة لأن الإنسان يمثل الجوهر في الفكرة البنائية ، فهو صانع التاريخ ، هذا في الحقيقة ما يكرمه و يعطيه مشروعية الاستخلاف. ولقد أدرك مالك بن نبي كيف يكون الربط والتناغم بين العناصر الحيوية في الحياة والتمثلة في (التراب- الإنسان- الثقافة) و تمزج هذه العناصر بالثقافة ليعطي- بن نبي- بذلك مفهوما للحضارة ، فهو يسعى من خلال أفكاره وتوجيهاته إلى صناعة رجال الحضارة والتميزيين بشخصياتهم وثقافتهم عن الحضارة الغربية ومقوماتها، ولا يتأتى له ذلك إلا عن طريق التربية للأفراد والمجتمعات على هذه الثقافة الأصيلة الضاربة بجذورها في عمق التاريخ ، اتخذها -بن نبي- منطلقا لتحليل وتشخيص واقع الأمة واقتراح الحلول لمعالجة مشكلاتها والعمل على نهضتها .

وفي هذا الإطار يأتي بحثنا لتسليط الضوء على المرجعية الفكرية لمالك بن نبي ومنهجه ونظرية الإنسان المتحضر لديه ونظرته إلى المعرفة والتربية ، وذلك من خلال التطرق إلى بعض العناصر ذات الصلة بالموضوع وذلك بهدف التصدي لخديعة ما يسمى بالعولمة الثقافية التي أدرك مالك بن نبي خطورتها-كونه سبق جيله-لأنها في الحقيقة ليست إلا صورة للاحتواء والغزو الثقافي بشكل جديد. وما أحوج مجتمعنا العربي المعاصر-والجزائري خصوصا- إلى فكر مالك بن نبي الذي يقدم إجابات موضوعية لفكرة العولمة الثقافية ، وكيف يمكننا الاستفادة منها في المشروع التربوي الإصلاحى لمالك بن نبي دون مواجهة تقود إلى صراع حضاري .

إشكالية البحث:

ما العلاقة بين الإنسان والمشروع الحضاري لمالك بن نبي؟

وللإجابة على هذا الإشكال يجب أولاً الإجابة عن التساؤلات الفرعية التالية:

- كيف تجلت أبعاد الرؤية التاريخية لفكرة الإنسان؟.

- من هو مالك بن نبي؟ وما هي أهم المؤثرات التي ساهمت في إثراء فكره و مكونات شخصيته؟.

- كيف نظرت الفلسفة اليونانية والغربية (أرسطو - ماركس) للإنسان؟.

- ما مفهوم الإنسان في الفلسفة الإسلامية وعند مالك بن نبي؟.

- ما المشكلة الثقافية عند مالك بن نبي؟.

- كيف نظر مالك بن نبي إلى المجتمع المتحضر؟.

- ما هي أبعاد المعرفة عند مالك بن نبي؟.

- فيما تمثلت أبعاد النظرية التربوية في فكر مالك بن نبي؟.

فرضيات البحث:

- يعدّ مالك بن نبي واحداً من أعلام النهضة الإسلامية، ومن أبرز المفكر العرب المعاصرين ، عني بالفكر الحضاري منذ "ابن خلدون".
- إن الفكر اليوناني مجد الإنسان، واعتقد فيه اعتقاداً عظيماً، باعتبار أن الإنسان هو أفضل موجود، وهذا ما يفسر ارتباط الآلهة بصفات بشرية، بل ذهب اليونان إلى أن الإنسان حلّ في الإله بحيث ملئ الآلهة بالبشرية وخصائصها.
- عرّف أرسطو الإنسان على أنّه حيوان عاقل، و ماركس عرفه أنه مخلوق اجتماعي يمكنه أن يتطور فقط في المجتمع، أما وجهة نظره عن الطبيعة البشرية تلخصها عبارته الشهيرة: "كل التاريخ ليس سوى تحول مستمر في الطبيعة البشرية".
- الإنسان في الفلسفة الإسلامية ليس تطوراً طبيعياً بفضل تعقيد المادة وارتقائها، ولا هو تطور بيولوجي كما تشير النظرية التطورية، بل خلقه الله تعالى بقضائه وقدره،

ووضع فيه آياته المعجزة، والإنسان بخصائصه المادية والروحية وحدة متكاملة تحمل إمكانية العقل وإمكانية الإختيار، وحرية الإرادة، ولذلك حمّله الله الأمانة والمسؤولية قال تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ سورة الأحزاب.

- إن للحضارة في فكر مالك بن نبي ثلاثة عناصر مركبة لها إلا أنّ أهم العناصر على الإطلاق هو الإنسان واعتبر مالك بن نبي أنه لا حضارة من خلال التراب والزمن، ما لم يكن هناك إنسان قائد لمسيرة الحضارة.
 - وجهة نظر مالك بن نبي فيما يخص مشكلة الثقافة تجلت في أنه لا سبيل لعودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية إلا بعد تخليصها من الحشو أو الانحراف الذي يحدثه عدم فهمها على الوجه الصحيح.
 - إن المجتمع المتحضر هو المجتمع الذي بلغ عمر الفكرة، وتتمثل هذه الفكرة في جملة عوامل معنوية ومادية تتيح لهذا المجتمع أن يوفر لكل فرد من أفراده جميع الضمانات والضوابط الاجتماعية اللازمة لمواصلة عملية التحضر، لأن الحضارة هي: القدرة على القيام بوظيفة أو بمهمة معينة تخدم تقدم ونمو المجتمع.
 - تعرّض مالك بن للمعرفة من خلال ثلاثة أبعاد أساسية: هي البعد الإبتيمولوجي، البعد الحضاري، والبعد التربوي.
 - إبن نبي يرى أن التربية هي تربية للحرية عن طريق الحرية، حتى يتمكن الإنسان المتربي من أن يفهم ويشعر أنه هو نفسه صانع مصيره، عن طريق فسح المجال لأفكاره، لأن تتبلور وتظهر في سلوكياته وتتفاعل مع النسق العام لحركة المجتمع.
- منهج البحث:

ومن أجل الإلمام بجوانب الموضوع اعتمدت على منهجين أساسيين هما:

- المنهج التاريخي العام: في سياق عرض بعض الوقائع التاريخية و سرد بعض الوقائع التاريخية و سرد عناصرها وكذا محاولة رصد و تسجيل أهم النصوص و والآراء والمواقف و التصريحات التي تهم موضوع الدراسة.

- المنهج التحليلي : و قد سلكته في دراسة و تحليل و نقد بعض الأفكار الواردة في هذه الدراسة، سواء من خلال مصادرها الأساسية أو المراجع و الكتب التي تناولت تلك الأفكار، وكذلك الاطلاع على كتب مالك بن نبي بصفة عامة، و الكتب المترجمة على وجه الخصوص أجل الوقوف على مشروعه الحضاري وتقديم قراءة موضوعية لأفكاره التي تقدم مشروعا للبناء الحضاري والتعايش السلمي.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية الدراسة من خلال المكانة التي يحتلها موضوع الإنسان في الدراسات المعاصرة، كما تتجلى أيضا في الفكر والمنهج الذي يحمله المفكر المعاصر مالك بن نبي الذي شغلته قضية الحضارة واحتلت مكانة مركزية عنده ،حيث بحث في ما يعاني منه العالم الإسلامي من مشكلات حضارية وفي نفس الوقت قدم الحلول التي من شأنها أن تنهض وتبنى عليها الحضارة.

أهداف الدراسة:

- توضيح المنهج الفكري والحضاري لمالك بن نبي والبحث عن سبل تفعيله في الواقع بشكل كامل وصحيح

- يهدف البحث إلى توضيح مشكلة الانسان وتسليط الضوء عليه كأهم عنصر لقيام الحضارة.

- بيان تيمات المجتمع المتحضر كما تطرق إليها مالك بن نبي .

- وكذلك التذكير بالأزمة التي يعاني منها العالم الإسلامي بصفة خاصة والعالم بصفة عامة.

- .الكشف عن عوامل النهوض أهم الجوانب الضرورية لبعث النهضة الحضارية .

- أهمية العملية التربوية في المشروع الحضاري لمالك بن نبي.

أسباب اختيار الموضوع:

من أهم الأسباب التي دفعتني لإختيار هذا الموضوع أذكر:

- محاولة التعريف بعالم جزائري كرس حياته لخدمة الأمة الإسلامية عامة ووطنه الجزائر خاصة.
- كما أن اهتمامه بمستقبل الإنسان المسلم في سبيل أن يمارس دوره التاريخي و القيادي من جديد بدل
- الوقوف شاهدا على أحداث التاريخ، جعلني أختار فكر مالك بن نبي موضوعا لدراستي.
- إبراز البعد الإنساني والحضاري و العالمي لفكره و إجابته على انشغالات بشرية الغد و خاصة انشغالات الأمة الإسلامية.
- الحاجة الماسة لقيام الحضارة الإسلامية من جديد وإتباع مشروع حضاري تربوي ينبع من تعاليم الدين الإسلامي.
- صعوبات البحث:

بالنسبة للصعوبات التي واجهتني في إعداد هذه الدراسة فهي تنحصر في تلك العراقيل التي تواجه أي باحث أكاديمي خاصة في مجال حقل الدراسات التاريخية التي تتطلب بذل المجهود والصبر في سبيل تحري صدق الحدث و أمانته ، و تفحص النصوص ، و نقد الأقوال و الآراء و المواقف بمعزل عن التأثيرات الشخصية و القناعات الفكرية ، ذلك أن الكتابات الملزمة أكاديميا تفرض على صاحبها ، توخي الحداثة كأسلوب ، و الأصالة التاريخية كمضمون و الموضوعية كمنهج و خدمة الحقيقة التاريخية كهدف و غاية ، و عموما فإن أهم الصعوبات التي واجهتني هي:

1- نقص المادة التاريخية المتخصصة في موضوع دراستي ، بحكم ان الدراسات التي تناولت الموضوع في غالبيتها دراسات تخص مجالات غير التاريخ كعلم الاجتماع و الفلسفة و علوم الدين.

2- رغم أن مالك بن نبي قد كتب مذكراته و في كتاب شاهد القرن و تناول فيه مرحلتي الطفولة و الدراسة إلا أن مرحلة الإبداع و العطاء الفكري ، فإنّها غير مدونة وهذا ما يشكل بالنسبة لي صعوبة في دراسة تلك الحقبة من حياة هذا المفكر.

3- إن تميز أسلوب مالك بن نبي و دقة و عمق أفكاره يتطلب بذل الجهد الكبير لفهم تلك الأفكار وتحليلها و شرحها.

هيكل البحث:

لقد تناولت البحث وفق الخطة المبينة أدناه، حيث قمت بتقسيم بحثي إلى ثلاثة فصول بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة، وكان هيكل البحث كالتالي:

- مقدمة عامة

- الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان: وقد قسمت هذا الفصل إلى ثلاث مباحث، المبحث الأول كان بعنوان المرجعية الفكرية لمالك بن نبي، أما المبحث الثاني فتطرق فيه إلى الإنسان في الفلسفة اليونانية والغربية (أرسطو - ماركس)، والمبحث الثالث تناولت فيه الإنسان في الفلسفة الإسلامية وعند مالك بن نبي.

- الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر عند مالك بن نبي: حيث وقفت في المبحث الأول على مركزية البعد الثقافي (المشكلة الثقافية) في مشروع مالك بن نبي، أما المبحث الثاني فقد خصصته لدراسة المجتمع المتحضر في منظور مالك بن نبي، والمبحث الثالث تناولت فيه ثلاثية الحضارة عند مالك بن نبي (الإنسان، التراب، الزمن).

- الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي: حاولت اظهار الرؤية الإسلامية للمعرفة عند مالك بن نبي وكان هذا المبحث الأول، أما بالمبحث الثاني فقد عنونته بأبعاد النظرية التربوية في فكر مالك بن نبي

وختام هذا الفصل كان عبارة عن رؤية نقدية لمشروع مالك بن نبي.

- وأنهيت دراستي بخاتمة تضمنت حوصلة للنتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة

الفصل الأول:

رؤية تاريخية لفكرة الإنسان

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

تمهيد:

إنّ تاريخ الفلسفة يحمل في طياته صورة ثابتة تعبر عن معنى الفكر الفلسفي، ألا وهي الحضور الدائم للتساؤل حيال كنه الوجود وفكرة الإنسان والذات الإنسانية، وعن كينونة الفهم التي تحمل أبعادها الآنية، والإحاطة بمستقبل الذات والفكرة الجوهرية لمفهوم الإنسان عبر التاريخ من منظور الفلسفة الغربية، والفلسفة العربية الإسلامية عامة ومفهوم الإنسان عند مالك بن نبي خاصة، وللخوض في هذا الدراسة إقتضى منا طرح بعض التساؤلات الوجيهة، من ضمنها: كيف نظرت الفلسفة اليونانية والغربية (أرسطو - وماركس) كمثال إلى الإنسان؟ وما هو مفهوم الإنسان في الفلسفة الإسلامية بصفة عامة وعند مالك بن نبي بصفة خاصة؟ .

وللإجابة عن كل هذه التساؤلات إرتأينا أن نقسم الفصل الأول لدراستنا هذه إلى ثلاث مباحث حيث تناولنا في المبحث الأول: المرجعية الفكرية لمالك بن نبي، أما المبحث الثاني فقد جاء تحت عنوان: الإنسان في الفلسفة اليونانية والغربية، أما المبحث الثالث والأخير تضمن مفهوم الإنسان في الفلسفة الإسلامية وعلى الخصوص عند مالك بن نبي.

أمّلين التوفيق، " وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " هود الآية 88.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

المبحث الأول: المرجعية الفكرية لمشروع مالك بن نبي

يعدّ مالك بن نبي واحداً من أعلام النهضة الإسلامية، ومن أبرز المفكر العرب المعاصرين ، عني بالفكر الحضاري منذ "ابن خلدون" تزامن مع فترة تاريخية حاسمة إذ ترك بين ماض عريق انطفاً نجمه، ومستقبله لا يزال في بداية التّشكّل، ومنه سوف نسلط الضوء في مبحثنا هذا للخوض أكثر في فكر مالك بن نبي.

*مالك بن نبي:

- حياته وتربيته وعلمه:

ولد "مالك بن الحاج عمر الخضر بن مصطفى بن نبي" بقسنطينة في يناير سنة 1905م¹، من عائلة محافظة فقيرة؛ ومن المهد تلقى رعاية تربية من الوالدين اللذين حرصا على رعايته وتربيته خوفاً من متلوثات المستعمر مع ما تلتزم به العائلة من عادات وتقاليد دينية.

كان الفتى مالك بن نبي شديد القرابة بجده الحاج زوليخة التي تعدّ بالنسبة له مدرسة أخلاقية رسخت في ذهنه وفي نفسيته معنى الخير والإحسان، وكلّ القيم الأخلاقية التي ينبغي أن يتحلّى بها الإنسان الصّالح² ، وفي سنة 1923 نجح "مالك بن نبي" في نهاية المطاف من الدخول إلى المدرسة الرّسمية و تكوين نفسه علمياً ومعرفياً، حيث درس الأدب العربي والأدب الفرنسي وتطرّق بالبحث والدّراسة إلى الحركات الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي، وكان شديد الاهتمام بالمطالعة، الصّحافة العربية والفرنسية كجريدة المنتقد والرّاية والتّضال الاجتماعي والعصر الجديد... وقد أثّرت هذه الجوانب القيّمة والأخلاقية في شخصيته، كما كانت نافذ

¹ مالك بن نبي: "مذكرات شاهد القرن"، القسم الاول، [الطفل]، بإشراف ندوة فكر مالك بن نبي، دار الفكر دمشق، البرامكة، ط2009، 6، ص15.

² فهمي جدعان، نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، دار الشرق، الأردن، ط1، 1998، ص132 .

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

يبصر من خلالها مدى المأساة والمرارة التي كان يعيشها العالم الإسلامي وبخاصة المجتمع الجزائري¹.

كان "مالك بن نبي" عضوا نشيطا في جماعة الودويين فكانت له الجرأة أن قدّم يوماً محاضرة بعنوان: "لماذا نحن مسلمون" في أواخر ديسمبر 1931، وقد أثارت هذه المحاضرة جدلا كبيرا بينه وبين الانفصاليين².

تزوج "مالك بن نبي" عام 1931 من امرأة فرنسية أسلمت على يده وأصبح اسمها "خديجة"، وأحسّ بالاستقرار بهذا الزواج وتهيأت له القاعدة النفسية للتركيز العلمي والتّحصيل الدراسي، وقد ساهم هذا الزواج في تنمية الحس الجمالي في تفكير "مالك بن نبي"، كما تعرّف "مالك بن نبي" في فرنسا على بعض الشخصيات السياسية التي التقى بها وتأثر بها منها "المهاتما غاندي" (1869-1948)، وشخصية "مصالي الحاج" مؤسس نجم شمال إفريقيا حيث نشط معه مسرحية "الحاكم الطيب"³.

وسمحت له روحه النقدية ودراسته الاجتماعية والفلسفية والسياسية واحتكاكه بالأوساط الثقافية بالانكباب على معرفة مشاكل العالم الإسلامي، واتّجه نحو تحليل الأحداث التي تحيط به وقد أعطته ثقافته المنهجية على إبراز مشكلة العالم المتخلف⁴، وذلك من خلال محاضراته بمصر (1956 - 1963) وكتاباته، صار بيته فضاء فكريا وثقافيا يقصده الطلبة من عرب ومسلمين يستمعون إلى أفكاره ويستفيدون من رؤيته لمسألة الإصلاح ومنهجية تغيير العالم الإسلامي⁵.

وفي سنة 1972 قام بأداء فريضة الحج وأثناء رحلته إلى مدينة الأغواط في الجزائر حيث كان يلقي بعض المحاضرات هناك، اشتدّ به المرض وكان قد أصابه السرطان في البروستات، فسافر إلى باريس للعلاج، ثم اشتدّ عليه المرض فنصححه الطبيب المعالج أن يعود

¹ عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشهاب، الجزائر، ط2، 1984، ص 216 .

² مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، دمشق، ط1، 1969، ص 221.

³ زكي ميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، دراسة تحليلية ونقدية، دار الفكر، دمشق، ط1، 1994، ص 45.

⁴ رسالة ماجستير، الثقافة عند مالك بن نبي، قراءة معرفية وإبستمولوجية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 29.

⁵ زكي ميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، دراسة تحليلية ونقدية، مرجع سابق، ص 45.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

إلى بلاده، فعادوا به إلى الجزائر وبعد ثمانية أيام توفي في 31 أكتوبر 1973 بعد عمر يناهز الثمانية والستين¹.

كان "مالك بن نبي" جريئاً في طرح آرائه والتعبير عن أفكاره، وإن خالفت التيار العم، فقد تمتع بجرأة مبدعة في تأصيل قوة الإرادة عند الأمة الإسلامية وقد كان رحمه الله يؤمن بأن الإصرار على بذل الجهد، والمشاركة الفعالة يحطم الأصنام السياسية والفكرية والثقافية والاجتماعية. وقد ساهمت عدّة مصادر على تشكيل وصياغة فكر "مالك بن نبي" تقف عند أهمها:

أ- أثر الثقافة العربية والإسلامية: تلقى بن نبي في الوسط المدرسي تكويناً علمياً وأدبياً معتبراً، حيث درس التوحيد على يد شيخه "مولود بن موهوب" والفقه والسيرة على يد الشيخ "بن العابد"، كما تلقى أيضاً من الشيخ "عبد المجيد" أول ما أسس الثقافة العربية، وتأثر تأثراً كبيراً بالحركات الإصلاحية الإسلامية بالجزائر كحركة الشيخ "عبد الحميد ابن باديس" وبالحركة الوهابية في الحجاز، وبالحركة الإصلاحية في المشرق، ومن شخصياتها "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" و"رشيد رضا"، إذ يقول "مالك بن نبي": "وكان آخر هذه المؤثرات كتابات عثرتُ عليها في مكتبة النجاح أحدهما الينابيع البعيدة..."²

ويعتبر "حمودة بن الساعي" المؤثر الحقيقي في شخصية "مالك بن نبي" فهو الذي أحدث تلك القفزة النوعية في فكره من دراسة العلوم البحتة إلى العلوم الإنسانية³، وقد تعلم منه كيفية تفسير وتأويل الآيات القرآنية تفسيراً اجتماعياً.

كما اطلع "مالك بن نبي" على ألوان من الأدب العربي القديم كشعر "امرئ القيس" و"الشنفرى" و"عنتره" و"الفرزدق".

و الشعر الحديث" لحافظ إبراهيم" و"معروف الرصافي" و"جبران خليل جبران" و"إيليا أبو ماضي" وغيرهم⁴، وبعد القرآن الكريم الباعث الروحي والأساس الأول في تكوين "مالك بن نبي".

¹ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

² مالك ابن نبي، مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، دمشق، الطبعة 1، 1969، ص66.

³ المرجع نفسه، ص67.

⁴ رسالة ماجستير، الثقافة عند مالك بن نبي، قراءة معرفية وإبستمولوجية، المؤسسة الوطنية للكتاب، مرجع سابق، ص30

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

ب- أثر الثقافة الغربية: تلقى "مالك بن نبي" عن المدرسة الفرنسية بالجزائر حب المطالعة والاستفادة من المنهج الديكارتي العقلاني، كما طالع الصحف والمجلات الغربية وخاصة الجرائد الماركسية منها: جريدة الإنسانية "L'Humanité"، والكفاح الاجتماعي "Lute sociale". إن هذه الصحف التي تمثل الاتجاه الماركسي قد كشفت لـ "مالك بن نبي" عن طبيعة التفاعلات الاجتماعية والقوانين التي تحرك المجتمع وخلال جهوده بفرنسا استطاع أن ينمي ويوسع تأملاته الفكرية والأدبية حيث قرأ لمشاهير الأدباء الفرنسيين أمثال "لامارتين" و"شاتوبرايل" و"فيكتور هيغو" و"بلزاك...".

و تأثر ببعض الفلاسفة والمفكرين نذكر منهم: "نيتشه" في كتاب "هكذا تكلم زرادشت" و أخذ عن "كانط" فكرة الحق والواجب التي أسس عليه مفهومه للعدالة الاجتماعية، كما أخذ عن جوي ديوي "من خلال كتابه" كيف نفكر "تلك النزعة البرغماتية التي تؤكد على الجانب النفعي في مجال التربية اطلع أيضا على كتابات المستشرقين عن الإسلام مثل كتاب "أوجين يونغ" الإسلام بين الموت والرب، وكتاب "هنري بيرن" "محمد وشرلمان" ولقد اطلع أيضا على كتابات المؤرخ الفرنسي "جيز" و"ولتر شوبرت"، كما كان للمؤرخ الإنجليزي "أرنولد توينبي" وصاحب مؤلف "دراسات التاريخ" أثرا كبيرا في فكر "مالك بن نبي" وفي نظريته للحضارة حيث استمد منه فكرة التحدي ودور في نشوء الحضارات حيث صاغها صياغة جديدة في ضوء القرآن الكريم ويتجلى ذلك في كتابه "ميلاد مجتمع" يقول "مالك بن نبي": والواقع أن القرآن الكريم قد وضع المسلم بين حدّين هما الوعد والوعيد، ومعنى ذلك أنه: قد وضعه في أنسب الظروف التي يتسنى له فيها أن يجيب على تحدّ روعي في أساسه.

كما استلهم فكره من الفيلسوف الألماني "هرمان كسر لينغ" فكرة البدايات الدينية لكل حضارات التي عرفتها الإنسانية، ويتضح ذلك في كتابه "شروط النهضة" ونستشف إلى جانب الثقافة الغربية أثر الثقافة الشرقية في فكر "مالك بن نبي" حيث اصطبغت مؤلفاته بنزعة إنسانية وروحية كنتيجة لتأثره بأفكار الأدباء والمفكرين الكبار أمثال "غاندي" و"شاعر الهند" طاغور¹.

أعماله:

بعد تخرجه من المدرسة الثانوية التي توهل للعمل (توازي المعهد في هذه الأيام) عمل كاتب عدل في المحكمة الشرعية في منطقة "آفلو شلغوم العيد" وكان اسمها يومها "شا تودان"، ولم

¹ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط 3، 1986، ص45.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

يعجبه تسلط كاتب محكمة الصلح آنذاك فقدّم استقالته، ثم أصبح شريكا في مطحنة مع صهره ولم تتجح المطحنة، بعدها قرّر السفر على فرنسا أين انخرط في الأحزاب السياسية، ثم أصبح رئيسا " لنادي المؤتمر الجزائري الإسلامي للثقافة" ولكن الفرنسيين أغلقوه بحجة أن مالك لا يملك شهادة تدريس وأنّ المكان تنقصه التهوية، وعمل بعدها في طباعة وتوزيع الكتب العلمية المبسطة.

انتقل بعدها إلى مصر وفي القاهرة اتصل بالرئيس " جمال عبد الناصر" وخصت له الحكومة مرتبا شهريا مما ساعده على التفرغ للعمل الفكري وقد عينه " أنور السادات" الأمين العام للمؤتمر الإسلامي آنذاك مستشارا له، ثم عاد إلى الجزائر عام 1963م، وعين مستشارا للتعليم العالي، ثم مديرا لجامعة الجزائر ثم مدير التعليم العالي، ولكنه استقال من منصبه عام 1968م ليتفرغ للعمل الفكري والإصلاح¹.

- مؤلفاته:

لقد ترك " مالك بن نبي" عدة مؤلفات ركّزت كلّها على إبراز مشكلة العالم المتخلف "بما في ذلك العالم الإسلامي، باعتباره قضية حضارة أولا وقبل كل شيء، فوضع كتبه جميعها في سلسلة تحت عنوان " مشكلات الحضارة"²، وفي ما يلي نذكر بعض من آثاره:

- الظاهرة القرآنية (الجزائر 1946).
- لبيك (الجزائر 1947).
- شروط النهضة (الجزائر 1948).
- وجهة العالم الإسلامي (باريس 1954).
- الفكرة الإفريقية الآسيوية (القاهرة 1956).
- النجدة للجزائر (القاهرة 1957).
- مشكلة الثقافة (القاهرة 1959).
- حديث في البناء الجديد (بيروت 1960).
- الصّراع الفكري في البلاد المستعمرة (القاهرة 1960).

¹ موسى لحرش استراتيجيّة البناء الحضاري للعالم الاسلامي في فكر مالك بن نبي. جامعة باجي

مختار، الجزائر، سنة 2006، ص 50.

² المرجع نفسه، ص 60.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان

- الصعوبات كعلامة نمو في المجتمع العربي (القاهرة 1960).
- فكرة كومونيلث إسلامي (القاهرة 1960).
- تأملات في المجتمع العربي (القاهرة 1961).
- ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية (القاهرة 1962).
- آفاق جزائرية (الجزائر 1964).
- مذكرات شاهد للقرن: القسم الأول [الطفل] (الجزائر 1966).
- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي (القاهرة 1971).

ولمعرفة مكانته وأهميته البالغة نذكر أقوال بعد الأساتذة وشهاداتهم في فكره:

يقول الأستاذ الكبير "محمود محمد شاكر" في مقدمة كتاب "في مهب المعركة لمالك بن نبي" لعلني لا أبالغ إذا قلت إن المجموعة من مقالات أخي الأستاذ مالك بن نبي، هي عندي من أنفس ما كتب؛ لأنها تكشف لنا عن ذكر رجل خبير، فكّر في الأمور ساعة، بعد ساعة، وقيّد هذا الفكر في حينه، فإذا نحن نرى أنفسنا في ضوء ما كتب قديماً، كأننا لم نتقدم خطوة في فهم البلاد الذي ينزل بنا ولا يزال ينزل... فهذا المفكر الخبير قد استطاع بحسن إدراكه وبقوة بيانه وبدقة ملاحظته، أن يفتح عيوننا على الخيوط التي تتسج منها حياتنا تحت ظلام دامس قد أطلقه المستعمر ليخفي عنا مكره بنا وخداعه لنا¹، ويقول الأستاذ "محمد مبارك" في مقدمة كتاب **وجهة العالم الإسلامي لمالك بن نبي**: "إنّ هذا الكتاب يكشف في مالك بن نبي عن مفكر كبير احتل بسرعة فائقة مكانة اللائق في طليعة العالم العربي الإسلامي... وهو في مجموع آثاره ليس مفكراً صاحب نظرية فلسفية في الحضارة فحسب، بل داعياً مؤمناً يجمع بين الفيلسوف المفكر ومنطق وحماسة الداعية المؤمن وقوة شعوره... فأنا لا أقول إنه ابن نبي ولكني أقول أنه يُنهل من نفحات النبوة وينبوع الحقيقة الخالدة"²

ويقول الأستاذ الدكتور "عبد العزيز الخالدي" في مقدمة كتاب "شروط النهضة لمالك ابن نبي" في الواقع ليس كاتباً محترفاً أو عاملاً في مكتب مكبّاً على أشياء خامدة من الورق والكلمات ولكنه رجل شعر في حياته الخاصة بمعنى الإنسان في صورته الخلقية والاجتماعية

¹ محمد محمود شاكر: "في مهب المعركة لمالك بن نبي"، <https://al-maktaba.org/book/32345/10#p10>

² محمد مبارك: وجهة العالم الإسلامي لمالك بن نبي، 1959، ص 13.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

وتكوين المؤلف كمهندس قد ساعده دون شك في التصوير الفني للأشياء ، و ثقافته المزدوجة تسمح بأن يصل هذا التصوير بالخطة الإنسانية¹.

كما يقول فيه الدكتور " مصطفى السباعي": " الأستاذ مالك جزائري الأصل، مجاهد في سبيل القضية الجزائرية منذ نشوئها... ويتميز الأستاذ مالك بن نبي في جميع مؤلفاته بعمق التفكير ومنطقيته، وواقعيته، وقوة أسلوبه في الدفاع عن الأفكار التي يتبناها... وقد استطاع مالك بأسلوبه الذي تفرّد به، وثقافته الغربية الواسعة مع ثقافته العربية الإسلامية، أن يوجه إليه أنظار جيل من شبابنا المثقف الذي يتوق إلى الإصلاح مع احتفاظه بقوة العقيدة وسلامة التفكير، ويرى في الأستاذ مالك بن نبي رائده الفكري البعيد النظر القوي الإيمان المناضل بقلمه في سبيل الله والإسلام².

وقال عنه الدكتور "أنور الجندي": يختلف مالك بن نبي كثيرا عن الدعاة المفكرين والكتاب، فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي الدقيق الذي اتاحت له ثقافته العربية والفرنسية أن يجمع بين علم العرب وفكرهم المستمد من القرآن والسنة والتراث العربي الإسلامي الضخم وبين علم الغرب وفكره المستمد من تراثهم وتاريخهم³.

* فكر مالك بن نبي:

لقد شكّلت الظروف الثقافية والاجتماعية، وكذا المحيط الذي عايشه " مالك بن نبي " إطارًا تبلورت فيه نزعة التغيير في فكره، والتي كان مدار الأمر فيها " ضرورة الخروج من التخلف والإنحطاط الذي يعيشه العالم الإسلامي⁴

إذ أنّ معايشة "مالك بن نبي" للراهن الحضاري الذي عاصره أوحّت له أنّ الأمر لا يتوقّف عند أزمت اجتماعية أو نفسية عارضة تواجه العالم المتخلف، وإنّما أدرك بأنّ الأمر يتعدى ذلك قناعة منه بأنّ الأزمة أزمة ركود حضاري طال زمانه أمدا بعيدا، فالعالم العربي الإسلامي ومنذ عصر ما بعد الموحدين تردّى إلى انحطاط حضاري مريع مثلت القابلية للاستعمار

¹ موسى لحرش: استراتيجية البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق ص 53.

² د مصطفى السباعي: " المسلمون"، العدد 104، المجلد 6، ص 67.

³ أنور الجندي: " الفكرة والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا"، 1965، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص 67.

⁴ نورة خالد السعد، " التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، الدار السعودية

للنشر والتوزيع، ط 1، 1997، ص 36.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

والتخلف الاجتماعي، السياسي، والاقتصادي، والانحطاط القيمي والأخلاقي، والاعتراب في حضارة الغرب أحد أهم مظاهره التاريخية المتصدّعة .

وفي هذا الصدد يطرح الباحث الجزائري " عبد القادر بوعرفة " وهو أستاذ بجامعة وهران سؤالاً مهماً وجوهرياً، وهو هل يمكن اعتبار مالك بن نبي نتيجة إدراكه للمشكلات الحضارية وللمآلات التي طالت إنسان الحضارة في هذا العصر، مفكراً إصلاحياً أم اجتماعياً أم سياسياً أم فيلسوفاً؟.

إنّ قضية التصنيف الفكري لأمثال المفكرين الكبار الذين ذاع صيتهم على مستوى عالمي ليس بالأمر السهل البتّة، ونجد أن الباحث " عبد القادر بوعرفة " قد خلص من خلال دراسته حول فكر مالك بن نبي، بأنّه لا يمكن عدّه من طراز أساطين الفلاسفة الكبار في تاريخ الفلسفة بل هو متفلسف وليس فيلسوفاً، لأنّه لم يستطع أن يبدع نسقاً فلسفياً خاصاً ومستقلاً من عنده، ولكن هذا لا يعني عدم أهميته وفعاليته وقدرته في التشخيص والتحليل والضبط والتجاوز، فهو من منتقي الأفكار الذين يسعون إلى تحقيق الإنسجام والتركيب بين ما هو أشبه بالشتات المعرفي المنسجم، فتحقق في فكره صفات الفيلسوف الفقيه، العالم، المحلل، والمؤرخ والسياسي المنظر¹.

أي أنّ منطق "مالك بن نبي" كان بالضبط استقراء الواقع وحركته التاريخية مما ساعده على تحديد مشكلات الحضارة برؤية جديدة وإيجاد الحلول العملية القابلة للتطبيق في أي مشروع تغيير حضاري، ولهذا اتّبع مالك بن نبي المنهج العلمي باستخدامه الاستقراء التاريخي فقد كان ينطلق من الجزئيات " الأفراد " إلى الكليات " الحضارة"، ومن جهة أخرى استخدم الاستنباط لكي يصل إلى فهم الظواهر التي يحلّها ويدرك العلاقة الكامنة بينها للوصول إلى

¹ عبد القادر بوعرفة، " الحضارة ومكر التاريخ"، منشورات مخبر الأبعاد القيميّة للتحوّلات الفكرية والسياسية بالجزائر، دار رياض العلوم الجزائر ط2006، 1، ص29، ص30.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

نتائجها وقوانينها التي تساعد على التفسير والتنبؤ المستقبلي¹ كما استخدم مفاهيم التحليل النفسي والتاريخي بصفاتها أدوات معرفية تساعد على معرفة الانتظام الذي يحكم هذه الظواهر. وما يلاحظ عند قراءة مذكرات "مالك بن نبي" أنه كان متضلع في الفرنسية وأداؤه اللغوي خاصة وأنه درس في باريس لكونه مرتبط بنمط تكوينه الذي تلقاه، ورغم ذلك فقد تعلم العربية بالقاهرة وكتب بها وألف بها الكثير من الأعمال فكان أحد مستشاري المؤتمر الإسلامي²، فبعد أن كان التكوين الأساسي للمفكر مالك بن نبي في مجال الكهرباء، أدرك أن المعركة الحضارية الحقيقية هي معركة فكرية قبل أن تكون أي شيء آخر والصراع الفكري لن يخرج عن هذا الإطار وربما كان هو السبب الحقيقي لتداعي العربية والإسلامية بعد مسيرة ناجحة دامت ردحا من الزمن³، إنَّ الخلل يكمن بالضبط في افتقاد العالم العربي الإسلامي لمبادئ ومراجعياته التاريخية على مستوى الوجود النفسي والاجتماعي، تلك هي الحقيقة المرة التي أرقّت فكر مالك بن نبي وجعلته يلج باب مشكلات الحضارة من بابها الواسع، إذ في ظلّ الارتجالية السياسية والتحزبية البوليتيكية والتهاون العلمي والعملي أدرك المفكر أن محل الصراع يقع غير بعيد عن عالم الأفكار، ربّ عالم للأفكار فقدت له المكانة التاريخية الملائمة في عالم أصبح كل ما فيه سيطرة الشيء وتعنت الأشخاص وتدريبهم إلى خلافت طائفية حزبية عرقية لا أساس لها في عالم المبادئ والقيم الثقافية الحضارية.

ولقد أحاط الظرف الاستعماري بأهم مراحل فكر "مالك بن نبي" ولكنها كانت ضرورية بشكل ما لتحريك الفعل الحضاري والفكري في مجتمع تسحقه الغطرسة ويناله التنكيل وتصهره مرحلة فمرحلة الذوات التبشيرية والتنصيرية، التي أثّرت في الشعور العربي الإسلامي عن طريق مغرباتها المادية الحضارية الناجزة، التي فرضت سيطرتها السياسية والاقتصادية باسم القوة وحقوق الإنسان وحماية الشعوب المستضعفة، حيث كان من شأن هذه الإيديولوجية الميتة أن

¹ نورة خالد السعد، "التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص281.

² بشير ضيف الله، "فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي"، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2005، ص22.

³ المرجع نفسه، ص27.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

أفقدت العالم العربي الإسلامي ثقته التاريخية في مبادئه الثقافية والروحية من خلال تأثير المكسب الحضاري الجاهز الذي أصبح بضاعة ناجزة يطالب منا الغرب الاندماج فيها باسم الإنسانية والمشاركة في الحرية والممارسة الثقافية بيد أن الحلول الغربية لم تكن سوى عزاء غير مريح سرعان ما ألقى بنتائجه الوخيمة مهددا الكيان العربي الإسلامي ومطوقا إياه بنوع الحاكمية الحضارية النافذة التي لاتقبل العيش إلا في وسطها الثقافي الذي نبت فيه، وبالتالي لم تملك الحضارة الغربية بالرغم من مبادئها الثقافية الإنسانية سوى قوة باطشة وآلة مدمرة تقوض خارج حدودها كل من يرفض الاستماع إليها وإلى نرجسية خطابها فكان أن مررت أهدافها الإيديولوجية في حوامل هي من جنس التي تود القضاء عليها، لأنها أدركت بأن المبادئ التي تتجذر في بنية الوجود النفسي والروحي للإنسان العربي المسلم لايمكن القضاء عليها إلا من خلال تكريس بنية فاعلة أشدّ تفعيلًا في واقع حضاري مخالف، وهذا ما تجسد في تلك المساعي التبشيرية " المسيحية والنصرانية" التي عمل الغرب على تكريسها من أجل القضاء على فاعلية الفكرة الدينية الإسلامية في نفس الإنسان المسلم وتلك هي أكبر مخاطر الاستدمار السياسي الغربي الذي نبه مالك بن نبي بخطورته وكرس نضاله الفكري من أجل تبصير العالم العربي الإسلامي بما ينتظره في أفق المعتزك الحضاري الذي يخوض أشواطه التاريخية المعاصرة، لأنّ من شأن التدايعات الناتجة عن هيمنة الإيديولوجية الغربية حتما هو فقدان المبادئ والمرجعيات الذاتية في صنع القرار الحضاري الذي أضحي يناقش خارج الحدود السياسية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية للعالم العربي الإسلامي¹، الذي لم يكتب له في عالم الحضارة المعاصرة سوى الاستماع لما يقوله الغير وما يحدده له من أهداف ومبادئ مزيفة كانت استيرادا سيئا من حضارة غربية لاتملك من مبادئها سوى التعسف والتكيل والفرض الجبري لقرارات التغيير خارج حدودها، وفي هذا نبه مالك بن نبي من خلال مايمكن استشفافه من تحليلاته بأنّ قرارات التغيير لابدّ من أن تصنع في نفس محيطها الطبيعي الذي ارتبط به وجودها النفسي

¹ بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي ، مرجع سابق، ص34.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

والاجتماعي وإلا كانت مجرد عالم من الوهم لا يدركه إلا من خرج من إطاره، فالمبادئ
التغييرية لا يمكن استيرادها.

تلك هي القضية المهمة التي يمكن أن يدين بها العالم الإسلامي لمسار الفكر الحضاري
البنابي إذا ما هو أصغى إلى ندائه الخافت بعيدا عن متهاتات السياسة ، وأدجلة الثقافة والدين
والمجتمع¹.

وطالما أنّ الحضارة تتوقّف على الإنسان، نحاول إستقراء هذا الأخير عبر التاريخ آخذين
نماذج معينة، تُظهر أهميته في تأسيس الحضارة وبناءها على غرار الفلسفة الإسلامية ،
واليونانية والغربية .

¹ بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي ، مرجع سابق، ص35.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

المبحث الثاني: الإنسان في الفلسفة اليونانية والغربية (أرسطو - ماركس)

عرّف الإنسان علمياً على أنه الكائن الحي الوحيد الباقي من الإنسان العاقل، وهو العاقل الوحيد المالك لدماغ عالي التطور، لديه القدرة على التفكير المجرد والنطق واستخدام اللغة والتفكير الذاتي الداخلي، وإيجاد حلول للصعاب التي تعترضه، على خلاف باقي الحيوانات على سطح الكرة الأرضية، وتتوعد النظرة الفلسفية للإنسان وتغيّرت تبعاً لتطور الفكر الإنساني بشكل عام.

المعنى الإنساني في الفكر الفلسفي اليوناني:

إن الفكر اليوناني مجد الإنسان، واعتقد فيه اعتقاداً عظيماً، باعتبار أن الإنسان هو أفضل موجود، وهذا ما يفسر ارتباط الآلهة بصفات بشرية، بل ذهب اليونان إلى أن الإنسان حلّ في الإله بحيث ملئ الآلهة بالبشرية وخصائصها، وتوصلوا إلى حقائق أسطورية وفلسفية مفادها أن "المكان يقع تحت حس الإنسان، أما الزمان فهو فكرة مجردة انتصرت على المكان فانفرد الزمان بالسلطة والتمس له زوجة، فاتخذ الآلهة "ريا Rhéa" زوجة له فكانت تلد له أبناء كان يبتلعهم بمجرد ولادتهم"¹، وهذا التفسير الميثولوجي للوجود الإنساني، وإن بدا في ظاهره وعياً دينياً، فقد كان مادة لتفسير الظواهر الطبيعية، لأن ما تميز به الإغريق عن غيرهم من الشعوب الأخرى هو ميلاد وجهة نظر جديدة جعلت "الإنسان في مركز العالم"² رغم أن هذه الرؤية الفلسفية لا يمكن فصلها عن تأثير الجماعات الدينية الأورفية (نسبة إلى أورفيوس و الأورفية تمثل الطبقة الوسطى المثقفة، وفيها نبغ شعراء وكتاب اعتمدوا على التفكير الشخصي في معالجة مسألة نشوء العالم، فهدبوا الأساطير القديمة وكانوا رواداً للعلم الطبيعي)³ التي تحدثنا عن الأصل الإلهي للإنسان من خلال أسطورة ديونيسوس Dionysos، عندما حرّضت الآلهة "هيرا" التيتان أعداء زوس، على قتل ابنه "ديونيسوس" تمكنت منه، إلا أن آلهة بلاس

¹ - محمد كامل حسين، في الأدب المسرحي (من العصور القديمة والوسطى) دار الثقافة، بيروت (د.ط.ت)، ص: 6.

² - Edith Hamilton. La mythologie. Edition Marabout 1978, p 7.

³ يوسف كرم- تاريخ الفلسفة اليونانية- ط5، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة 1966 ص8.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

خطفت قلبه فيولد منه "ديونيسوس" جديد، وعلى الأثر صعق زوس التيتان " ومن رمادهم يولد الجنس البشري "1، الذي يختلف فيه الخير المنحدر من زوس، والبشر الذي يعود إلى التيتان.

وفي هذا السياق المأساوي انتشر عند اليونان أن الإنسان خاضع كل الخضوع للإله، كما تروي الملحمة الشعرية الأوديسا، وفي المقابل أعلن عن ميلاد فكرة أن الإنسان إرادة حرة عندما تغلب زوس على التيتان بمساعدة برومئثوس ومعناه الإغريقي : "المتنبئ" لقد صار برومئثوس رمز الصراع بين الجبرية وحرية البشر، عندما عمل على تفوق الجنس البشري، بسرقة النار من الشمس ومنحها له ليحمي ذاته بطريقة أفضل من الأمور الطبيعية كالجلد والريش والأجنحة والسرعة وغيرها، و من العلامات الإنسانية المميزة في الإلياذة تلك الصورة الأخرى في إنقاذ البشر، عندما تخاصم قائد الجيش اليوناني "أجاممنون" مع الآلهة ديانا، ولم يجد وسيلة لاستلطافها سوى التضحية بابنته إلا أن الآلهة " رآفة بجمال البنت .. افتدوها بكبش، وبذلك انتهت الخصومة "2.

إن هذه المعاني الإنسانية وغيرها، بدأت عند إضفاء صفة الإنسانية على قوى الطبيعة الغامضة، بحيث ظهرت تلك القوى ككائنات تتصف بالسلطة والإرادة، أي كوجود فائق القوة يتحكم في مجرى الأمور ومصير الأشياء؛ وسواء أكان مصدرها أغاني الشعب الإغريقي أو نسبت لقصائد هو ميروس وهزيود فإنها تناقلت، وبفضلها تعرفنا على الحياة الأخلاقية والاجتماعية اليونانية، خاصة في قصيدة الأعمال والأيام، أين تبدو الأبعاد الإنسانية أكثر وضوحاً من قصيدة الثيوغونيا أو ميلاد الآلهة، عندما يقول : " الإنسان الذي يقترب الشر، فإن الشر يصيبه أيضا "3.

¹ - اميل برهيه، تاريخ الفلسفة، الجزء الأول: الفلسفة اليونانية، ترجمة: جورج طرابوشي، دار الطليعة، بيروت الطبعة الأولى 1982، ص 66.

² - محمد كامل حسين، المرجع نفسه، ص 14.

³ - Hésiode. La théogonie, les travaux et les jours et autres poèmes. Traduction : Philippe Brunet. Commentaires Marie – Christine Leclerc. Edition : Librairie Française.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

لهذا يقرن وجود الإنسان بالعمل مادام "الآلهة والبشر ينقذون الحياة العاطلة للإنسان .. لا يوجد عمل مذموم وحدها البطالة هي المذمومة¹ وعلى أساس هذه القيم الإيجابية تنشأ العلاقات الإنسانية على قاعدة المعاملة بالمثل عندما يقول : " أحب من يحبك، واقترب ممن يقترب منك .. أكرم من أكرمك، وارفض لمن رفض إكرامك "²، غير أن هذا السلوك الإنساني، وإن كان يهدف إلى تحقيق التوازن في تنظيم علاقة الإنسان بالآخر، فهو يعبر عن هاجس البحث عن النظام الذي يتجاوز كل أشكال الاضطراب والصراع، إنه العدل كما يذكر هزيبود : " لا يجب على كل شخص أن يكون عادلاً ليعيش سعيداً، عليه أن يبتعد عن العنف ... وعندما يغضب الإنسان فهو يستحق عقاب الآلهة، إن الإنسان محتاج إلى العمل ليكسب قوته، والعدل هو أساس كل عمل... "³.

و هذه المعاني الإنسانية : العمل والعلاقة بالآخر والعدل وغيرها من القضايا التي ظلت في إطار المشكلات الكونية، ستساهم في تطوير الشخصية الإنسانية التي تجسدها الأعمال المسرحية كما هو الشأن لدى الشاعر ايسخيلوس (525-457 ق.م) الذي رأى أن الإنسان لا يستطيع أن يحتفظ بحقه على الدوام، لأنه دائماً يطالب بأكثر من حقه، وعندئذ يتحول الحق إلى خصمه، بعد أن كان بين يديه، فالإنسان الذي يثأر لنفسه يميل دائماً إلى الإسراف في الأخذ بالتأثر، فيظلم ويجور، ويترتب على ذلك أنه يرتكب آثاماً جديدة تبعده كل البعد عن حقه الأول وتهدد وجوده الشخصي بالانقراض، و تجاوز هذه الحالة لا يكون حسب ايسخيلوس إلا بالفضيلة، التي لا تعني إلا الاعتدال، باعتباره القدر المشترك بين الإنسان والآلهة، لأنه عندما ابتعد عنه الإنسان كتب عليه الشقاء، وعندما لم تلتزم به الآلهة تعرضت لآثام، كما يبدو من أفكار مسرحياته مثل : اجمامنوت، وبرومثيوس سجيناً، واوريست، التي جعلت الإنسان ضعيفاً مع إرادة الإله؛ في حين وجدنا سوفوكليس (495 ق.م-405 ق.م) ينتصر للإنسان الحر

¹ – Hésiode. Op.cit, p 106, p 108.

² – Hésiode. Op.cit, p 109.

³ – محمد كامل حسين، المرجع نفسه، ص 22.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

وبذلك يسجل تحولاً نوعياً في الفكر اليوناني، إذ انتقل الصراع بين الإرادة الإلهية وبين الإنسان إلى الصراع بين إرادتين من إرادات الإنسان، كما يظهر في مسرحيته : أوديب ملكاً، التي عملت على إبراز الشعور بالحيرة والمساواة، والاعتراف بالشخصية الإنسانية باعتبار أن لكل فرد إرادة خاصة.

- أرسطو:

هو فيلسوف يوناني ولد في عام 384 قبل الميلاد في بلدة ستاجيرا، وهي بلدة صغيرة على الساحل الشمالي لليونان، والده "نيكوماشوس" كان طبيب البلاط لدى ملك مقدونيا "أمينتاس الثاني"، ورغم أن والده توفي عندما كان صغيراً، إلا أن أرسطو بقي قريباً من البلاط وتأثر به. والدته "فيستيس" لا يُعرف الكثير عنها وتقول بعض المعلومات إنها توفيت أيضاً في صغره. بعد وفاة والد أرسطو أصبح زوج أخته الكبيرة وصياً عليه حتى بلوغه، وأرسله إلى أثينا التي كانت تعتبر المركز الثقافي للعالم ليكمل تعليمه العالي عندما كان في السابعة عشر من عمره. درس أرسطو في أكاديمية أفلاطون التي كانت تعتبر رائدة وأثبت تميزه، كما أنشأ علاقةً جيدةً مع أفلاطون نفسه، الذي كان تلميذ سقراط¹.

إن أرسطو قد أصبح فيلسوفاً وواحد من عظماء المفكرين وعالم موسوعي ومؤسس علم المنطق وعدد من الفروع الأخرى للمعرفة الخاصة، اعتبره ماركس أعظم مفكري العصور القديمة، وقد أسس مدرسته الخاصة في أثينا عام 335 قبل الميلاد، ولقد ميّز في الفلسفة بين:

1. الجانب النظري الذي يتناول الوجود ومكوناته وعلله وأصوله.
2. الجانب العملي الذي يتناول النشاط الإنساني.
3. الجانب الشعري الذي يتناول الإبداع.

¹ نظام بركات، مبادئ علم السياسة، مكتبة العبيكان، الرياض، 2008، ص232.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

نظرة أرسطو للإنسان:

عرّف أرسطو الإنسان على أنّه حيوان عاقل، ويعد واحد من أغرب التعريفات وأكثرها شهرة على مر التاريخ بل والأكثر تكرارا في كتب الفلسفة أيضاً، إذ يرى أرسطو أن العقلانية هي الصفة الحاسمة والمميزة لبني البشر، وعلى الرغم من كثرة المصطلحات التي تطرقت إليها بحوثه، إلا أنّه لم يحدّد الإنسان منها بالضبط، ولهذا اعتبر العديد من الفلاسفة أطروحة أرسطو فوضوية وغير منهجية عند الحديث عن الإنسان¹.

إنّ معرفة الإنسان للعالم في الفكر الأرسطي تكون عن طريق مجموعة من المبادئ العقلية التي ينشرها العقل على كل الموجودات، فتنتم فيها وتتم معرفة الإنسان لها، وبهذا الصدد رأى أرسطو: " إما أن يكون الإنسان إنسانا وإما لا يكون، لكنه لا يملك أن يكون إنسانا بقدر أكثر أو أقل"²، ومثل هذا الاهتمام بالوجود الإنساني جعله يقف عند الصفات التي تميزه عن سائر الكائنات لأنه: " من الواضح أن المرء قابل للحياة الاجتماعية أكثر من النحل وغيره من الحيوانات الأليفة، لأن الطبيعة كما قلنا، لا تسمى عبثا، فالإنسان وحده ناطق من بين جميع الحيوان .. وما اختص به الإنسان دون سائر الحيوان انفراده بمعرفة الخير والشر والعدل والظلم وما إليها، وتبادل تلك المعرفة ينشئ الأسرة والدولة"³، أي أن غاية الإنسان تكمن في تحقيق علم السياسة لأنها الخير الذي يسعى إليه الإنسان من خلال تدبير المدن، والسياسة المثلى " التي يتيح نظامها لكل فرد أن يبلغ غاية الفلاح وأن يحيا حياة سعيدة"⁴، غير أن فهم معنى السعادة كان موضوع اختلاف عن كانت حقيقتها تكمن في اللذة أو الصحة أو الثروة أو

1 علوان عبد الكريم، الوسيط في القانون الدولي العام (حقوق الإنسان)، ط1، مكتبة دار الثقافة، عمان، 2004، ص 31-34.

2- اميل برهيه، تاريخ الفلسفة، الجزء الأول: الفلسفة اليونانية، ترجمة: جورج طرابشي، دار الطليعة، بيروت الطبعة الأولى 1982، ص 307.

3- أرسطو، في السياسة، ترجمة وتقديم وتعليق: الأب أوغستينس برياره البولسي، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع الطبعة الثانية 1980، ص 09.

4- المصدر نفسه، ص 356.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

الحكمة، في حين وجدنا أرسطو يقرر بأن فضيلة العقل لا تتم إلا في مجتمع، إذن السعادة هي مشاركة الآخرين في تحقيق الخير.

فالروح الإنسانية التي تجعل " غرض السياسة هو الخير الحقيقي، الخير الفعلي للإنسان .. و الخير بأن يحب حتى ولو كان لكائن واحد، ولكنه مع ذلك أجمل وأقدس متى كان ينطبق على أمة بأسرها، ومتى كان ينطبق على ممالك بنوامها"¹، تبين الارتباط الوثيق بين الحياة العقلية والأخلاقية والسياسية في الفكر الأرسطي، بحيث لم تعد الإنسانية هي إحدى المثل أو الصورة المجردة، في حين أن الإنسان هو الكائن التي يتغير، وبالتالي لا يمكن امتلاك قيم الحق والخير والجمال؛ و الفضيلة لا تكفي، بل أن تعرف أيضا و تمتلك وتمارس، لأن " الخير يتبع العلم الأعلى بل العلم الأساسي أكثر من جميع العلوم، وهذا هو على التحقيق علم السياسة"².

- ماركس:

يعد كارل ماركس فيلسوف ومفكر سياسي واقتصادي وعالم اجتماع، ألف العديد من الكتب في مجالات الفكر والفلسفة والسياسة والاقتصاد. عُرف بتصوره المادي في قراءة التاريخ ونقده للرأسمالية، كما اشتهر بنشاطه الثوري في صفوف الحركة العمالية، ولد يوم 5ماي 1818م في مدينة ترير التابعة يومئذ لمملكة بروسيا الواقعة شرق ألمانيا حاليا وهو الابن الثاني في أسرة ميسورة الحال تنتمي إلى الطبقة الوسطى وتتكون من تسعة أبناء، ينحدر أبوه "هاينريش ماركس" من عائلة يهودية ضمت العديد من الحاخامات وتجار مزارع الكروم، " أما الأم فهي "هنرييت برسبورغ" تنحدر من عائلة يهودية هولندية، وقد بقيت على يهوديتها حتى وفاة والدها الحاخام، ثم اعتنقت المذهب اللوثري عام 1825، تلقى ماركس تعليمه الثانوي بمدينة ترير، وانتقل إلى بون عام 1835 لدراسة القانون، ثم إلى برلين في مارس 1836 لدراسة التاريخ والفلسفة

¹ - أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة: أحمد لطفي السيد، درا الكتب المصرية، القاهرة، 1924، الجزء الأول، ص 172.

² - أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس المصدر السابق، ص 171.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

بجامعة فريدريش فيلهلم، وقد تخرج بدرجة الدكتوراه سنة 1841 من كلية الفلسفة بجامعة بينا، وهي من أعرق الجامعات الألمانية، كما كان ماركس من المتأثرين في بداية حياته الجامعية بالفلسفة الهيجلية (نسبة إلى الفيلسوف الألماني جورج فريدريش هيغل).

- نظرة ماركس للإنسان:

إنّ كارل ماركس بخلاف كثير من علماء الاجتماع والنفس المعاصرين، لا يؤمن بأن ما يسمى بطبيعة الإنسان غير موجودة، أي أنّه لا يعتقد بأنّ الإنسان عند ولادته هو مثل صفحة بيضاء من الورق، تقوم الثقافة بتحييرها، و يبدأ ماركس في التعارض مع هذه النزعة السوسولوجية، بفكرة أن الإنسان بوصفه إنسانا، هو طكينونة قابلة للمعرفة والإدراك، أي أنّ الإنسان ككائن من الممكن تحديده ليس فقط بيولوجيا، وتشريحا، وفيزيولوجيا، وإنما أيضا بسيكولوجيا، بالطبع إن ماركس لم يكن خاضعا لإغراء الافتراض بأنّ " الطبيعة البشرية" متطابقة مع ذلك التعبير الخاص للطبيعة البشرية، الذي كان سائدا في مجتمعه، ففي حاججته مع " بنتام" يكتب ماركس " من أجل معرفة ماهو مفيد للكلب ، يجب على المرء دراسة طبيعة الكلب، إنّ هذه الطبيعة ذاتها لا يمكن استنتاجها من خلال مبدأ المنفعة، وبتطبيق ذلك على الإنسان، نجد أنّ الذي يريد نقد مجمل السلوك، الحركات، والعلاقات الإنسانية، بواسطة مبدأ المنفعة، ينبغي عليه أن يبدأ بمعالجة الطبيعة البشرية بشكل عام، ومن ثمّ ينتقل لدراسة تحولاتها في كل حقبة تاريخية¹، وهنا ينبغي الانتباه إلى أنّ هذا المفهوم للطبيعة البشرية، ليس تجريدا بالنسبة لماركس (مثله مثل هيغل)، إنّ جوهر الإنسان في تغاير الأشكال المتنوعة لوجوده التاريخي، أو كما يعبر عنها ماركس " إنّ جوهر الإنسان ليس تجريدا متأسلا في كلذ فرد على حدا"²

إنّ مفهوم ماركس للإنسان يعود بجذوره إلى التفكير الهيجلي، يبدأ هيغل بنظرة أنّ الظاهر والجوهر لا يتطابقان، إن مهمة المفكر الجدلي هي أن يميز التقدم الجوهرى عن التقدم الظاهري

1 إريك فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، ط1998، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، ص43-44.

2 المرجع نفسه، ص44.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

للحقيقة وأن يفهم علاقتهما¹ ، حيث يؤدي التطور إلى تحقيق الجوهر أو بمعنى ما إلغاء مفهوم الجوهر والظاهر لصالح الإنسان الطبيعي.. فالجوهر الإنساني ذو طابع تاريخي بقدر ما هو انطولوجي وذو طبيعة حسية بقدر ما هو كائن عاقل اجتماعي، فالإنسان لا يؤكد ذاته في وجوده في العالم الموضوعي بواسطة الفكر بل عبر كل أحاسيسه، فالذات والموضوع لا يمكن أن تنفصلا..

أو إذا أردنا تبيانها بشكل آخر " إنها مشكلة العلاقة بين الجوهر والوجود، في عملية تطور الوجود، يتم تحقق الجوهر، وفي نفس الوقت، يعني الوجود عودة إلى الجوهر، يكون العالم مغرباً غير حقيقي، طالما أنّ الإنسان لم يدمر موضوعية العالم الباردة ولم يدرك ذاته وعالمه " فيما وراء الأشكال الثابتة للأشياء والقوانين، فعندما يحصل الإنسان في النهاية على وعي الذات هذا، فإنه لا يكون فقط، في طريقة لمعرفة حقيقة ذاته، بل وحقيقة العالم أيضاً، كما أنّه من خلال الإدراك يقوم الفعل، أي أنّ الإنسان سيحاول وضع الحقيقة في الفعل وبصير العالم ماهو جوهرياً فيه، أي تحديداً، تحقيق وعي الذات للإنسان².

عرّف ماركس الإنسان على أنه مخلوق اجتماعي يمكنه أن يتطور فقط في المجتمع، أما وجهة نظره عن الطبيعة البشرية تلخصها عبارته الشهيرة: "كل التاريخ ليس سوى تحول مستمر في الطبيعة البشرية"، فماركس كان يعتقد أن الطبيعة البشرية تتشكل إلى حد بعيد من خلال تاريخها، وأن الطريقة التي ينظر بها الإنسان إلى الأخلاق والبناء الاجتماعي كالحاجة إلى الوفاء، مشروطة تاريخياً بنفس الطريقة التي يتكون بها المجتمع³.

1 إريك فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، مرجع سابق، ص ص 44-45.

2 المرجع نفسه ص 45.

3 المرجع نفسه، ص 46.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

المبحث الثالث: الإنسان عند مالك بن نبي

إن للفلسفة الإسلامية بصفة عامة نظرتها المتفردة للإنسان، إذ نجد المفكرين الإسلاميين ومنهم مالك بن نبي، قد أعطوا قضية الإنسان أهمية كبيرة، وهذا المبحث خصصناه لمعرفة كيف كانت نظرة الإسلام بصفة عامة للإنسان ومالك بن نبي بصفة خاصة.

- نظرة الإسلام للإنسان:

لأن الإنسان خليفة الله في أرضه، فقد اهتم به الفكر الإسلامي اهتماما كبيرا و من جميع جوانبه، بشمول وتكامل وتوازن، بحيث لا يطغى جانب على آخر، فالإنسان ليس تطورا طبيعيا بفضل تعقيد المادة وارتقائها، ولا هو تطور بيولوجي كما تشير النظرية التطورية، بل خلقه الله تعالى بقضائه وقدره، ووضع فيه آياته المعجزة، والإنسان بخصائصه المادية والروحية وحدة متكاملة تحمل إمكانية العقل وإمكانية الاختيار، وحرية الإرادة، ولذلك حمّله الله الأمانة والمسؤولية، قال تعالى ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾¹، نلتمس هنا أن القرآن الكريم أعطى مفهوما متميزا عن طبيعة الإنسان ووظيفته في الحياة، مفهوم يختلف عن أطروحات النظريات المادية والتطورية، قديما وحديثا، فالقرآن ينظر إلى الإنسان على أنه مخلوق لغاية هي عبادته سبحانه وتعالى وإعمار الأرض، وتوجيه الحياة طبقا لأوامر الله تعالى، قال تعالى ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾²، فالناس مخلوقون من نفس واحدة هي نفس آدم عليه السلام، والله هو الذي أنشأ ذلك الخلق، وهذا يعني أنه ليس لأحد من أبناء آدم أن يدّعي الإمتياز على أحد، لا من حيث الأصل التكويني ولا من حيث الانتساب للقدرة الخالقة المصورة العليا، ووحدة الأصل الإنساني هذه يشترك فيها الرسل والأنبياء، مع الناس الذين أرسلوا إليهم فكون الرسول قد أوتي سلطانا ليعني ذلك إخراجة عن إطار البشرية، وإنما يعني فقط أنه قد صار بشرا رسولا، وأتباعه حينئذ يكون واجبا على الآخرين لا لعنصره التكويني ولكن إتباعا للمصدر

1 سورة الأحزاب، الآية 72

2 سورة الذاريات، الآية 56.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

الأعلى الذي اصطفاه، فإذا عرف الناس أصلهم التكويني ، وأقرّوا بالسيادة العليا لمن له الخلق والأمر وسلموا له بذلك ، فتلك هي عقيدة الإسلام وأصل التوحيد .

ومما هو معلوم في الشريعة الإسلامية ، أن الكون بما يحويه من أجزاء وتفصيلات مسخر أصلاً للإنسان حتى ينتفع بمحتوياته بما يحقق له الراحة والخير والسعادة، قال تعالى ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾¹.

إن التأمل الدقيق لقصة آدم عليه السلام ، يكشف لنا تعريف الله عز وجل للإنسان كمخلوق ، تعريف يمثل وجهة نظر العقيدة الإسلامية وتعريفها للإنسان، حيث تعتبر هذه القصة (قصة آدم عليه عليه السلام)، أفضل وأدق وأشمل تعبير عن طبيعة الإنسان، ليس بالمعنى البيولوجي فحسب ، بل من الناحية الفلسفية والسلوكية والرمزية ، يقول تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾²، وقوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة لنبين لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾³.

الإنسان في نظر الإسلام كائن، لا هو بالملاك ولا هو بالحيوان ، وإن كان في بعض حالات الهبوط يصبح أسوء من الحيوان، قال تعالى ﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيرا من الجنّ والإنس

¹ سورة إبراهيم، الآية 32-33.

² سورة الحجر، الآية 28-29.

³ سورة الحج، الآية 05.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون¹، وهذه الآية تبيان واضح وبسيط لذلك

وفي حالات أخرى يسمو بروحه إلى مستوى الملائكة من الطهر، أما في حالته الطبيعية فهو شيء بين هذا وذاك، في استعداد للخير كما هو في استعداد للشر وليس أي من العنصرين غريبا عن طبيعته، فهو يشمل نوازع فطرية تربطه بالأرض وفي الوقت ذاته يشتمل على نزعة فطرية تهدف إلى الإرتفاع والسمو، فالإنسان كائن متميز عن سائر الكائنات من حيث خلقه وتكوينه، ومن حيث منزلته في الكون وكذلك من حيث وظيفته الوجودية².

إنّ مفهوم الإنسان كما يمكن التفكير فيه، من خلال القرآن الكريم، مفهوم ذو بعدين : بعد عقلي (العقل والتمييز والمنطق)، وبعد حضاري (الحظ وتدبير المعاش والأكل باليد وركوب البر والبحر والتمتع بالطيبات) ليس هذا فحسب ، بل إنّ تكريم الإنسان يشمل تفضيل الله له على المخلوقات الأخرى ، فهو ينفرد من بين جميع المخلوقات المذكورة في القرآن بأنه وحده صانع الحضارة³ ، وهذا البعد الحضاري في الكيان البشري بالغ الأهمية بالنسبة إلى موضوعنا ، وبالإضافة إلى البعج العقلي والحضاري يشمل أيضا مفهوم الإنسان في القرآن الكريم أبعادا أخرى، أبرزها استخلاف الله له في الأرض لإعمارها، قال تعالى ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها⁴ ، وعمارة الأرض أي إقامة العمران، والحضارة تتطلب المعرفة بها وبما فيها وذلك في معنى قوله تعالى ﴿ علم آدم الأسماء كلها ﴾، الأمر الذي يعني التمييز بين الأشياء ومعرفة خصائصها.

يعدّ القرآن نصا مؤسسا، لهوية الفرد في المجتمعات الإسلامية، فلقد تناول قضية الإنسان والإنسانية من جميع جوانبها، فتحدث عن خلق الإنسان وأصل نشأته واستعداداته النفسية والذهنية ، وقدراته المادية ومؤهلاته الاجتماعية وكل ماله علاقة بحياته وكما مايمسها من قريب

¹ سورة الأعراف، الآية 179.

² عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1993، ص452.

³ الجابري محمد عابد، الديمقراطية وحقوق الإنسان، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان، ط3، 2004، ص203.

⁴ سورة هود، الآية 61.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

أو بعيد، فالإنسان هو الموضوع، باعتبار أنّ القرآن تناول شؤونه، وبين وبين ما يعتره من أحوال، تتعلق بموقفه من الإيمان والكفر، وتتصل بتفكيره وأخلاقه وسلوكه، وما يعرض له فيها من صحة أو اعتلال، ومن استقامة واعوجاج، وما يرتبط بحياته الفردية والاجتماعية، وما يحصل له فيها من انسجام أو تنافر، وذلك هو القصد، باعتبار أن القرآن نزل إليه يخاطبه والإنسان هو الغاية، لأنّ ما في القرآن من أوامر ونواهي وتوجيهات، إنّما يهدف إلى تزكية نفس الإنسان، وتهذيب روحه وتحسين أخلاقه وسلوكه، وتقويم أعماله وتمتين علاقاته وتسوية معاملته¹.

كما أنّ الآيات التي تختص بتعريف من هو الإنسان كثيرة في سور مختلفة من القرآن، تبيّن الخصائص الأساسية لفلسفة القرآن في الإنسان وماتطوي عليه هذه الفلسفة من تكريم للإنسان ومن تحديد لحقوقه.

ومنه نرى أنه ينظر للإنسان من خلال النصوص الإسلامية المؤسسة، على أنه خليفة الله في الأرض والمكلف من قبله بمسؤولية عمارة الأرض، بمعناه الحضاري الشامل، وسبيل نهوضه بذلك ما سُخر له من الإمكانيات المحيطة به من جهة، والحقوق التي ينبغي أن يتمتع بها، كالحرية بأنواعها والمساواة بينه وبين بني جنسه في سائر الحقوق والواجبات، وغير ذلك كما نجد أن العقيدة في الإسلام، تدور حول عبودية الإنسان لله، فإنّ الشريعة تدور على محور المصالح التي متّع الله بها الإنسان²، وتجسيدا لإعتراف الإسلام بالإنسان كما هو في حقيقته، لم ينكر الإسلام بشرية الإنسان، بل على العكس جعل مصير الإنسان كله موجودا في هذه البشرية، وجعل كماله كله موجودا فيها أيضا فكمالها كله موجود في فطرته عند الولادة، في حبه لمعرفة الله تعالى، وفي طاقاته العقلية وإرادته الأخلاقية.

1 محمد التومي، المجتمع الإنساني في القرآن، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دار التونسية للنشر، ط2، 1990، ص151.

2 محمد سعيد رمضان البوطي، الحقوق والحريات المدنية والسياسية في الإسلام: حقوق الإنسان في الإسلام بين الخصوصية والعالمية، منشورات "Iscisco"، 2001.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

- الإنسان عند مالك بن نبي:

يعتبر مالك بن نبي من بين المفكرين الذين وضعوا يدهم على الجرح الغائر للأمة العربية حيث تحدث عن وضع أمتنا المأساوي بسبب جمود فكرها واستسلامها باللامسؤولية وتخليها عن التعاليم والعنصر الأساسي للحضارة وهو الإنسان الذي يعتبر مشكل الحضارة حسب مالك بن نبي، ونصب جلّ اهتمامه بدراسته للإنسان ومن هنا نتساءل كيف نظر مالك بن نبي للإنسان؟ إنّ للحضارة في فكر مالك بن نبي ثلاثة عناصر مركبة لها إلا أنّ أهم العناصر على الإطلاق هو الإنسان، واعتبر مالك بن نبي أنه لا حضارة من خلال التراب والزمن، ما لم يكن هناك إنسان قائد لمسيرة الحضارة، وأكد مالك بن نبي على موقع رأس المال البشري في صناعة التحرر، والتقدم، والوحدة، فالإنسان هو الأصل في بلوغ الحضارة وهذا أمر مستفاد من الإسلام والرسالات السماوية عموماً التي استهدفت بالدرجة الأولى رفع شرف الإنسان وتحقيق كرامته وسعادته، في قوله تعالى ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾¹،

لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون الإنسان خليفته في الأرض، ليقوم بوظيفة الخلافة وعمارة الأرض، في قوله تعالى ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالو أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾².

وقد حدّد الله تعالى أهداف الإنسان في هذه الحياة ورسم له طريق النجاة، فقال في محكم تنزيله ﴿ واتّبع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾³، هذه المبررات في نظر مالك بن نبي لوجود الإنسان المسلم مكنته من بناء حضارة بسرعة هائلة فالإنسان هو الجهاز الأول للحضارة فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ .

¹ سورة الإسراء، الآية 70.

² سورة البقرة، الآية، 30.

³ سورة القصص، الآية 77.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

يقول مالك بن نبي " فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن، سكن التاريخ والمجتمع"¹، ويضرب لنا مالك بن نبي مثالا في ذلك من بلد أوروبي كـ"بلجيكا" حيث نجد الرجل لا يتمتع بتوازن اقتصادي في حياته، فهذا الاضطراب نتج عن عدم الملائمة بين حاجاته، وتيار الانتاج الصناعي المسرع، ومن هنا تنشأ مشكلة اجتماعية يعيشها شعب بلجيكا وهي مشكلة "الحركة"²، وهذه المشكلة راجعة في أساسها إلى مشكلة الإنسان المستوطن فيها، والذي عزفه عن الحركة، ومال إلى القعود والجمود في شتى المجالات مما أدى به إلى التراجع والانحطاط.

وإنّ هذا التغيير كلّه ينطلق من النفس الإنسانية فلا نغير الآخر إلا إذا غيرنا أنفسنا، ولذلك وجّه مالك بن نبي خطابه قائلاً: "إنّها لشرعة السماء، غير نفسك تغيّر التاريخ"³، وكان مالك بن نبي يستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَهُ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾⁴.

وبناءً على مدى تكريم الإسلام للإنسان، ودور الفرد في المجتمع قسم مالك بن نبي

الإنسان على ثلاثة أصناف أو مراحل والتي نجدها في كتاب مقومات مشروع بناء إنسان

الحضارة في فكر مالك بن نبي، للدكتور عمر النقيب والتي تتمثل في:

- إنسان ما قبل الحضارة: وهو الفرد الخام في حالة الفطرة أين يتعامل مع غرائزه كما خلق بها فهو الإنسان الطبيعي، أو الإنسان الفطرة⁵.

- إنسان الحضارة: بعد المرحلة الأولى وهي مرحلة الغريزة والفطرة، انتقل الإنسان إلى مرحلة

إنسان الحضارة أي: مرحلة الإنسان المتكامل كما أشار في ذلك " قد استكمل مواصفات

¹ مالك بن نبي، تأملات، 1961، شبراء، الخيمة، القليوبية، دار الوطن، ص 129.

² مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، 1957، ط1 دار الفكر، دمشق، سوريا، ص 81

³ المصدر نفسه، ص 35.

⁴ سورة الرعد، الآية 11.

⁵ عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، الشركة الجزائرية اللبنانية، ط 2009، ص 75.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

الإنسان المتكامل، فهو الذي يبدأ به التاريخ، أي : الدورة الحضارية الجديدة¹، وهو الذي يتم تكيفه بالمناهج التربوية النّابعة من خصوصية المجتمع، فوجهت طاقاته لأداء وظيفة التاريخية والحضارية، وبنيت خصائصه ومميزاته، تبعا للخصوصية الثقافية للمجتمع، ومن هنا أصبح الإنسان مؤهلا في مجتمعه، وذلك حسب دوره وموقفه ومن خلال ذلك تجسّدت فيه خصائص الفرد المنشود داخل المجتمع.

- إنسان ما بعد الحضارة: وهو الإنسان المتفسخ حضاريا: "أما إنسان ما بعد الحضارة فهو إنسان متحلل، قد تفسخ حضاريا وسلبت منه الحضارة، ولم يعد بحكم ذلك قابلا لإنجاز أي فعل حضاري"²، حيث في هذه المرحلة عرف الإنسان تحللا في العلاقات الاجتماعية والذي اصطلح عليه مالك بن نبي "إنسان ما بعد الموحدين"³، فأصبح عاجزا عن أداء وظيفته وحل مشكلاته، فهذه المرحلة أخطر حالات تضخم الأنا، وتكون سببا في الأمراض الاجتماعية كالنقلد والانحلال الخلقي وغياب القوانين، والأعظم من هذا فقدان الوعي الحضاري. ومن هنا ندرك أن الإنسان كائن حضاري يتلون بلون الحضارة، فهي منه وإليه، وهو منتجها والمستفيد منها وهو المرآة العاكسة لها والعاكسة له، وعلى هذا الأساس نتيقن أن الوصول إلى إنسان متكامل صانع للحضارة ليس بالأمر اليسير ، فأعداده وتجهيزه قد يحتاج منا إلى إعداد و تربية ، وتنشأة سليمة ، كي تستقيم مسيرة حياته، ومن أجل أن تكون عنده الأهلية لأداء دوره ودور الإنسان في مجتمعه أن يؤثر فيه بثلاث مؤثرات رئيسية وهي: أن يؤثر عليه بفكره من خلال ضرورة توجيه الثقافة وبعمله من خلال توجيه العمل حتى يكتسب قوّة في الأساس والمسايرة ، وماله فوحدة الهدف وتجنب الإسراف في الجهد والزّمن فهو ضرورة توجيه رأس

¹ المرجع نفسه، ص 77.

² عمر النقيب، المرجع السابق، ص 76.

³ محمد بغدادى باي، التربية والحضارة، ص 84.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

المال، وعلى هذا الأساس فإنّ دور الإنسان أن يكون فعالاً في مجتمعه أي كان، فهو مرهون به كما قال أحد المفكرين: "يحمل طقسه معه، أي كان أن يكون مشمساً أو ممطراً"¹.

لذلك فالمطلوب منا "أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى"، أو ما اسماء بالعناصر الثلاث الجوهرية في بناء الحضارة. ففي العالم الإسلامي أباد وعقول كافية. والمهمة تقوم في التوجيه، أي توجيه الإنسان صوب "دفعة دينية" بحيث "يكتسب بأثرها معنى الجماعة ومعنى الكفاح" أما مضمون أو حقيقة هذه "الدفعة الدينية" فأنها تتطابق في فكر ومواقف مالك بن نبي مع "المبدأ الأخلاقي الإيجابي"، أي الذي يتوافق مع مضمون الحضارة الإسلامية بوصفها حضارية مبنية على "أساس المبدأ الأخلاقي وليس الجمالي". وضمن هذا السياق استنتج القائل، بأن "الفكرة الإفروآسيوية ينبغي أن تؤسس منهجها الأخلاقي على مبدأ إيجابي، وبحيث لا يكون في جوهره دينياً."

مالك بن نبي ينطلق من فكرة عامة تقول، بأن "كل تفكير في مشكلة الإنسان هو في النهاية تفكير في مشكلة الحضارة"، وبالتالي، فإن "مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها". ويستند هذا الاستنتاج إلى رؤية فلسفية عن التاريخ واسعة الانتشار ومختلفة التفسير ومتنوعة التأويلات، وضمن آراء ومواقف مالك بن نبي فأنها تهدف إلى إثارة العزيمة والإرادة السياسية الفاعلة استناداً إلى رؤية ثقافية وحضارية عن النفس مبنية على أساس التراث السابق، والواقع المعاصر، ورؤية الآفاق المستقبلية، ومن ثم تحتوي على قدر من التفاضل العملي الواقعي المبني على أساس برنامج يناسبه في الرؤية المنهجية والتوظيف الفعلي، فهو ينطلق بهذا الصدد من أن "الشعوب تلعب أدوارها، وكل واحد منها يبعث ليكون حلقة في سلسلة الحضارات"²، أحدها ينبعث وآخر يزول.

¹ مالك بن نبي، تأملات، مصدر سابق، ص 129.

² ميثم الجنابي : مالك بن نبي: فلسفة الفكرة الحضارية، الحوار المتمدن العدد 5655، 2015/9/30.

الفصل الأول: رؤية تاريخية لفكرة الإنسان.....

خلاصة:

في الأخير نخلص أنّ مالك بن نبي قد اعتبر الإنسان المحور الذي يدور عليه الواقع، منه المبدأ، وإليه ينتهي وأنه مقياس الحضارة، فصلاح الحضارة وفسادها يقاسان بمدى النفع أو الإضرار به، كما أنّ له إرادة حرّة اختص بها، انطلاقاً من التكريم الإلهي له منتقداً بذلك النظرة الغربية لمفهوم الإنسان والحضارة، أمام الصراع الفكري القائم بين اتجاهات الفكر المادي والديانات السماوية في أوروبا الشيء الذي جعل الحضارة الغربية ذات البعد الواحد تتنحى عن المسار الفطري للإنسانية، رغم ماقدّمته من خدمات، فقد عالجت قضايا الجهل والجوع والمرض ببلادها، وتصدّقت ببعض منجزاتها على البشرية بعد أن امتصت ثروتها الباطنية والظاهرية في البلاد التي استعمرها أربابها وقاداتها.

الفصل الثاني:

مالك بن نبي نظرية الإنسان المتحضر في فكر

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

تمهيد:

يبرز مالك بن نبي في نظريته أن الإنسان اجتماعي بطبعه، ويسعى دوماً عبر أعماله لتحقيق فطرية الاجتماع الغريزية فيه، ونتيجةً لهذه الميزة الاجتماعية التي ترضي وتلبي حاجياته الفطرية فهو بحاجة ماسةً إلى تحقيق آليات الانصهار الاجتماعي مع بني جنسه، في بوتقة الحياة الاجتماعية الأمر الذي يدفعه إلى البحث عن وسائل للتفاهم والتواصل اللغوي والفكري والاجتماعي والثقافي، وبهاته الآليات تتشكل نواة المجتمع هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يقوم المجتمع، ولا يعرف الاستقرار إلاً بالفاعلية الثقافية، والمقصود بها الممارسة والحقن الحضاري. وأي تقاعسٍ في عملية الزرع الثقافي الدؤوب في مسيرة وبنية وعمق المجتمع ستجعل من المجتمع مجتمعاً متخلفاً / بدائياً تسوده الهمجية وبحيا بالتخلف والفوضى، ولذلك فقد عرّف المفكر مالك بن نبي الحضارة قائلاً (إنني أؤمن بالحضارة على أنها حماية للإنسان، لأنها تضع حاجزاً بينه وبين الهمجية)، وانطلاقاً من هذا المفهوم يتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي : فيما تمثلت نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي؟.

وقصد الوصول إلى الإجابات المقنعة و الأهداف المسطرة في فصلنا هذا قمنا بتقسيمه إلى ثلاث مباحث وهي كالآتي:

_ **المبحث الأول:** مركزية البعد الثقافي في مشروع مالك بن نبي (المشكلة الثقافية عند مالك بن نبي).

_ **المبحث الثاني:** المجتمع المتحضر من منظور مالك بن نبي.

_ **المبحث الثالث:** مالك بن نبي وثلاثية الحضارة (الإنسان - التراب - الزمن).

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

المبحث الأول: مركزية البعد الثقافي في مشروع مالك بن نبي (المشكلة الثقافية عند مالك بن نبي)

إنّ عالم الثقافة ليس عالماً ساكناً، بل له حياته، و تاريخه، وقد شكّل عالم الثقافة مشكلة وجب دراستها وتفسيرها حسب مالك بن نبي التي اعتبرها مشكلة لا تواجهنا البتة في دائرة المجردات، أي في المسرح، أو السينما أو مكتب عمل أحد الروائيين ولكنها تطرح أمامنا في العالم العيني الملموس لعملا اليومى، في إحدى حضائر البناء، أو في حقل نزرعه أو بالمدرسة أين نرسل الأطفال لتلقي المعرفة وأخير في كل مكان يوجد فيه شكل من أشكال حياتنا ونشاطاتنا اليدوية والذهنية .

* ماهية الثقافة:

ليس في مقدورنا أن نعالج موضوعا كهذا ، دون أن نجد أنفسنا في حالة التطور الراهنة في العالم العربي، أمام مشكلة لغوية وتاريخية، فمن أين جاءت كلمة " ثقافة " ومنذ متى استخدمت في اللغة العربية؟.

إن أول فكرة تخطر لنا للإجابة عن سؤال كهذا هي أن نستشير قاموسا، ولكن القواميس الموجودة بين أيدينا لا تذكر هذه الكلمة إلا لماما، سواء في ذلك القديمة أو الحديثة، فلسان العرب يقول في المجلد العاشر: " يقال ثقّف الشيء ، وهو "سرعة التعلّم" ، ويقول ابن دريد: " ثقفت الشيء حذقته"، وفي حديث الهجرة : " هو غلام شاب لقن ثقّف " [رواه البخاري]، أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنّه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه.

والعلامة فريد وجدي يقول في " دائرة معارف القرن العشرين/ المجلد الثاني": " ثقّف يثقّف ثقافة: فطن وحذق ، وثقّف العلم في أسرع مدة أي أسرع أخذه، وثقّفه يثقّفه ثقفا: غلبه في الحذق، والتثقيف: الحاذق الفطن"، أما القواميس الحديثة تقول: ثقّف ثقافة : صار حاذقا خفيفا، وثقّف الكلام فهمه بسرعة¹.

مالك بن نبي، مشكلات الحضارة "مشكلة الثقافة"، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر، 1984، ط1، دمشق، سوريا، ص19.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

وفي هذه النصوص من التشابه ما يدعوننا إلى أن نعدّها نسخاً متكررة نقل بعضها عن بعض.

وإذا ما رجعنا "لإبن خلدون" لم نجد أثراً لتلك الكلمة في لغتهنّ الذي يعدّ على أيّة حال المرجع الأول لعلم الاتماع العربي في العصر الوسيط، ولو أردنا الرجوع إلى ما قبل ذلك لم نجد الكلمة مستعملة في العصر الأموي والعباسي، إذ لا أثر لها في اللّغة الأدبية أو في اللّغة الرسمية والإدارية لذلك العصر، فتاريخ هذه الحقبة لم يروّج لائحة إدارية خاصة بمنظمة معينة أو عمل من الأعمال يتصل بالثقافة، ولم يحدث أن وقفت عين من الأعيان لفائدة عمل أو منظمة من هذا القبيل.

ومع ذلك فإنّ تاريخ هذه الحقبة، يدلّ على أنّ الثقافة العربية كانت آن ذاك في قمة ازدهارها، ولعلّ في هذا الموقف نوعاً من التعارض، ولكنه تعارض لا يتصل بمسألة لغوية فحسب، فإنّ الاختلاف بين الموقفين أكثر عمقا إذ هو الفرق بين واقع اجتماعي وبين درجة تقبله بوصفه فكرة في مجال شعورنا، أي عنصراً من عناصر الإدراك مندمج في بنائنا العقلي.

إنّ لفظ الثقافة يطلق أيضاً على المزايا العقلية التي أكسبنا إياها العلم حتى جعل أحكامنا صادقة ودائماً ما كان للثقافة علاقة تكاملية بالحضارة، والثقافة بمعناها الواسع إنارة الذهن، وتنمية الذوق والحس النقدي والحكم لدى الفرد والمجتمع¹.

* الثقافة عند مالك بن نبي:

لا يمكن الحديث عن الثقافة في العالم العربي، وعلى مستوى الفكر الإسلامي، دون التطرق والاقتراب لمالك بن نبي، الذي شغلته قضية الثقافة، وظلّ مسكوناً بها، ولم يفارقه الاهتمام بها طيلة حياته. وإسهاماته في هذا المجال هي الأكثر حضوراً وأهمية على مستوى الدراسات الإسلامية، وهو المفكر الذي استطاع أن يبلور نظرية في الثقافة، ويستقل ويعرف بها، وهي النظرية التي اكتسبت شهرة بين الكتاب والباحثين الذين ظلوا يرجعون إليها، ويعرفون بها في كتاباتهم وأبحاثهم، وما زالت هذه النظرية تلفت الاهتمام، وتستوقف نظر المشتغلين في حقل

¹ جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، 1982، ج1، بيروت، لبنان ص378.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

الثقافة والدراسات الثقافية، وذلك لطبيعتها المتميزة من جهة، ولضآلة الإبداع والتجديد العربي والإسلامي ومحدوديته في هذا الشأن من جهة أخرى، ولكون هذه النظرية من النظريات المبكرة والجديدة في مجالها.

إهتم مالك بن نبي ببحث الثقافة فحدّد مرجعيتها وأصولها وأطرها التاريخية، واستتبّط تعاريفها المختلفة من القواميس العربية، كما بحث في مقدمة ابن خلدون، وفي لغة الأدب وكتابات العصر الأموي والعباسي، فلم يعثر على مفهوم ثقافة في اللغة العربية على الرغم أنّ الفعل ثقّف أصل لغوي يتصل تاريخه بلغة الإسلام وقد ورد في بعض آيات القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث تفتوهم ﴾ النساء الآية 91، وفي كتب التفسير نجد أنّ الفعل ثقّف في هذه الآية يتخذ معنى وجد وأصاب، ويرى بن نبي أن كلمة ثقّف لم تعالج من ناحية المفهوم ولا كظاهرة اجتماعية في التراث العربي الإسلامي¹، حيث أنّ مصطلح الثقافة قد نشأ مع تطور أوربا إنطلاقاً من الزراعة والأرض التي هي الرّحم الذي تخلقت فيه حدود المادية والثقافة الأرضية، لذا لم تجد فكرة الثقافة مداها ومعناها في مكوناتها في إطار الحضارة الإسلامية، والمشرقية إلا في زمن متأخر².

علاوة على ذلك يتحدث بن نبي عن حادثة قام فيها صحفياً بطرح سؤال على " إدوارد هوريو " والذي " كان عميدا لكلية الآداب في "ليون" ورئيسا للبرلمان في فرنسا وعمدة مدينة "ليون"، فكان فحوى السؤال: ما هي الثقافة؟ فأجابه هوريو " بأنّ الثقافة هي ما يبقى عالقا بالأذهان عندما ننسى ما تعلمناه على مقاعد الدراسة والجامعات"³ ويعرف مالك بن نبي الثقافة "بأنّها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية يتلقاها الفرد منذ ولادته فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة والذي يتحرك في نطاقها الإنساني المتحضر"⁴ وهذا التعريف يبين

¹ مالك بن نبي، ورؤيته في الإصلاح الاجتماعي، ص37

² عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 2013، ج1، ص671.

³ مالك بن نبي، مجالس دمشق، ط2، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 2006، ص92.

⁴ مالك بن نبي: شروط النهضة " مشكلة الحضارة"، شركة النشر والاتصالات، تيبازة، 1992، ص83.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

بوضوح أنّ الإنسان كائن اجتماعي، مدني بطبعه، يكتسب من مجتمعه نسقا من القيم والمعايير الخلقية والاجتماعية والثقافية ، معتمدا في ذلك على الحديث النبوي الشريف في هذا التعريف فيقول: " إنّ الطبيعة تأتي بالفرد في حالة بدائية ثم يتولى المجتمع تشكيله ليكفيه طبقا لأهدافه الخاصة وهو المعنى الذي يقصد به الرسول صلى الله عليه وسلّم "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه"¹.

إنّ السبيل الصحيح عند بن نبي لإدراك الثقافة وفهمها باعتبارها واقعا اجتماعيا والتخطيط لها وبناء ذلك على الفهم وهو يتناول تعريف الثقافة من ناحيتين:

- **الناحية الأولى** : في ضوء تفسيرها باعتبارها واقعا تاريخيا.

- **الناحية الثانية**: في ضوء وظيفتها في البناء باعتبارها منهجا تربويا.

والثقافة بيئة مكونة من الألوان والأصوات والحركات والأشياء والمناظر والصور والأفكار المتفشية في كل اتجاه، فهي بيئة تمارس مفهومها على الراعي والعالم على حد سواء، وهي الوسط الذي يتشكل داخله الكيان النفسي للفرد بالصورة نفسها التي يتشكل بها كيانه العضوي، داخل مجال الجو الحيوي الذي ينظمه، فنحن لا نتلقى الثقافة وإنما نتنفسها ونتمثلها بالطريقة نفسها التي يتم بها تنفسنا للأكسجين في الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين، وسلوك الفرد فيه بطابع خاص يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر.

ويؤكد مالك بن نبي أنه لإعداد ثقافة لأبد أن نركز إنتباهنا على مجموع الإطار الثقافي، على المنوال نفسه الذي يتم فيه إنجاز ذلك من خلال بعض التجارب الراهنة، خاصة بالجمهورية الصينية ، حيث شرع في تغيير البيئة على مستوى قد يثير دهشة الملاحظ الغربي أحيانا، لاسيما إذا كان قد أنس الوجه التقليدي للصين القديمة².

¹ الكبار عبد العزيز، قراءة معرفية لمفهوم الثقافة عند مالك بن نبي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، ص109.

² مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 1991، ص 81.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

وانطلاقاً من حيث كون الثقافة عبارة عن علاقة عضوية بين سلوك الفرد وأسلوب الحياة في المجتمع بوسعنا القول بأنها التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة تمثلت في : الأخلاق، الجمال، والمنطق العلمي، والصناعة.

(أ) توجيه الأفكار:

مشكلة الثقافة من الوجهة التربوية في جوهرها هي مشكلة توجيه الأفكار، ولذلك علينا أن نحدد المعنى العام لفكرة التوجيه فهو كما يرى "قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف" ، فكم من طاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زحمتها قوى أخرى صادرة عن المصدر نفسه، متجهة إلى الهدف نفسه.

فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد والوقت فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من الملايين من السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية¹، وهذا الجهاز يتحرك ليحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساساً فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دوافع دينية وبلغه الاجتماع الإنسان الذي يكتسب من فكرته الدينية معنة (الجماعة) ومعنى (الكفاح).

وليس يكفي مطلقاً أن ننتج أفكاراً، بل يجب أن نوجهها طبقاً لمهمتها الاجتماعية المتحدة التي نريد تحقيقها وهنا نلاحظ وجود موقفان متعارضان في الظاهر ولكنهما مع ذلك نتيجة لوجهة النظر الاجتماعية، ففي البلاد العربية غالباً مانصادف هذين الموقفين متجسدين في شخصيتين مختلفتين.

فهناك من يدعي العمل السياسي مثلاً دون أن يرجع في عمله إلى قاعدة أو فكرة معينة، كأنذ من الممكن أني يكون النشاط فعالاً وفاعله اعمى، هذا الرجل (العملي) غالباً ما يكون

¹ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، مرجع سابق، ص 67.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

سليم القصد، وحينئذ لا يفسر موقفه إلا بجهله في المشكلات الإنسانية، لكن قد يحدث ويعتلي المسرح مقال ماهر في الدجل السياسي، يكتشف طيبة البسطاء وسرعة انقيادهم، فهو يريد أن يحتفظ بهذا المنم الثمين باي ثمن، بينما يعلم أنه لن يحتفظ بهم إلا بنشر الظلام، يؤيده في ذلك خفية الإستعمار الذي يقدر بدهاء ذلك الظلام¹، فمن الطبيعي أن يفقد النشاط فاعليته اذا ما أدار ظهره عمدا للمقاييس والقواعد، وفي كلمة واحدة" إذا ما أدار ظهره للأفكار، فإذا به يضلّ في متاهة من الإبهام والغموض والشك، دون أن يدرك أنه قد زاغ عن سواء السبيل.

لكن هناك شخصية أخرى تمثل نموذجا آخر من انعدام الفاعلية، وهي بصفة عامة رجل مخلص وهبته الطبيعة فكرا خصيبا، لكن لديه نوقا خالطه الترف العقلي، فهو طروب لايتخيل الفكرة منوالا تتسج عليه ضروب النشاط الاجتماعي، بل هي لديه لون من الترف يخلق المسرة، وغرام بالأفكار أشبه بالغرام بجمع التحف والأشياء الثمينة ووصفا لهذا الفكر يقول بن نبي" إنّه ليس مصنعا تتحول فيه الأفكار إلى أشياء، بل هو مخزن تتكدّس فيه الأفكار بعضها فوق بعض"، وهكذا تتمثل الوجه الآخر من الإنحراف الذي يقع فيه بعض الناس، ويضل النشاط في هذه الحالة في غيوم من الأفكارن فيجب ان نطبق في هذا الميدان مايطبق في الحساب الجبري، ففي هذا النوع من الحساب نلحظ علاقة رياضية بين عدد المقادير المعلومة وعدد المجاهيل، حيث أنه في الحالة التي يكون فيها عدد المقادير المعلومة أقل من عدد المجاهيل أو أكثر بنسبة معينة، يصبح في المسألة نوع من (الاستحالة) أو (عدم التحديد)، وبذلك لا يمكن حلّها، وكذلك هي الأفكار، إذ أنّ لها قواعد رياضية تؤكد وجود علاقات محددة بين الأفكار وبين ضروب النشاط، فإذا انعدمت هذه العلاقة بزيادة أو نقص، واجهتنا "الاستحالة" في آدائنا لأي نشاط².

¹ المرجع نفسه، ص68.

² المرجع نفسه، ص69.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

وبعبارة أخرى يصاب النشاط بالشلل عندما يدير ظهره للفكرة، كما تصاب الفكرة بالشلل، إذا انحرفت عن النشاط، لكي تمضي في طريق اللهو والعبث، أي أنّ توجيه الأفكار يقوم على إقرار التوازن الضروري في العلاقة بين الفكرة والنشاط.

ب) توجيه الثقافة: من المهم في هذا السياق حسب مالك بن نبي دائما التأكيد على ملاحظة منهجية أساسية وهي أن التوجيه في مجال الظواهر و المسائل الإنسانية يتطلب، من ناحية ابستمولوجية، تعريفها أولا. والثقافة من بين هذه الظواهر و المسائل الإنسانية الأساسية التي تتطلب بإلحاح تعريفا، بل تعريفين¹: الأول: يحددها في إطار الحالة الراهنة أما الثاني فيحددها وفق النظرة إلى المستقبل، فالجيل الذي نمثله اليوم، على سبيل المثال يشكل في نظره حدا فاصلا بين عهدين: عهد التراجع الحضاري وعهد بداية الانطلاق في بناء الحضارة.

فالجيل الذي نمثله اليوم، على سبيل المثال، يشكل - في نظره - حدا فاصلا بين عهدين: عهد التراجع الحضاري وعهد بداية الانطلاق في بناء الحضارة، فهو بشروعه في بناء نهضته، يكون قد سجل نقطة " بداية لنهاية موت الضمير"، وفي الوقت نفسه نقطة انطلاق نحو يقظته، إنه بعبارة أخرى يكون قد سجل اللحظة الفارقة بين عهد الفوضى والجمود وعهد التنظيم والتركيب والتوجيه، وحينما يصل التاريخ الإنساني إلى مثل هذا المنعطف من دورة الحضارة فإنه لا محالة، يكون قد أقدم على مرحلة تمثل نهاية عهد وبداية عهد آخر، أي على مرحلة وسط بين الماضي " الميت" والمستقبل الذي ينبغي أن يكون " حيا"² وهكذا، فإنه عندما نكون بصدد الحديث عن النهضة نحتاج من ناحية منهجية حسب مالك بن نبي إلى أن نتصورها من ناحيتين:

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة " مشكلة الحضارة"، شركة النشر والاتصالات، تيبازة، 1992، ص33.

² المرجع نفسه، ص33.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

-الناحية الأولى¹: وهي تلك المتصلة بالماضي، أي بحصيلة التدهور المجسم في عالم الأشخاص، الأفكار والأشياء .

- الناحية الثانية: وهي تلك المتصلة بـ (بذور) المصير وجذور المستقبل، وهذا التمييز ضروري جدا ولا يعد موضوعه ضربا من الترف الفكري تمارسه مجموعة معينة من أفراد المجتمع تعيش في رفاهية، ذلك لأنه يتعلق في جوهره بتكييف حالة مجتمع بأكمله وتقدير مصيره وفق سياسة اجتماعية سليمة، وهذا لا يتسنى إلا بالشروع أولا بتصفية العادات و التقاليد، النظام الأخلاقي والاجتماعي مما في كل ذلك من عوامل " مية " أو " مميتة " ورواسب لا فائدة منها، حتى يفسح بذلك المجال للعوامل الأخرى الفعالة لتنشيط حياة المجتمع وتحريكه باتجاه الحضارة؛ نحو صناعة التاريخ² على أن ما تنبغي الإشارة إليه في هذا الصدد، هو أن هذه التصفية لا تتأتى إلا بفكر جديد، قادر على تغيير الوضع الموروث عن فترة تدهور عاشها مجتمع أصبح اليوم يبحث عن وضع جديد، هو وضع النهضة³ والمراد بالفكر الجديد هنا هو تحديد محتواه من العناصر الجوهرية التي يراها مالك بن نبي ضرورية تماما للثقافة وهي :

- برنامج التوجيه في مجال الثقافة الأخلاقية.

- الذوق الجمالي.

- المنطق العملي .

- التوجيه الفني.

1 المرجع نفسه، ص34.

2 المرجع نفسه ص 35.

3 مالك بن نبي: شروط النهضة" مشكلة الحضارة"،مرجع سابق، ص36.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

هذا وتجدر الإشارة أيضا إلى أن التحديد المزدوج للثقافة في إطار الحالة الراهنة وحسب المصير (المستقبل) لا يعتبر ذا أهمية أو أثر بالغ إلا إذا زال ذلك الخط الشائع بين مصطلح " الثقافة " ومصطلح " العلم ". فمعظم التفسيرات التي قدمت بشأن " الثقافة " يمكن ردها في نظر مالك بن نبي إلى مدرستين¹:

الغربية: التي ظلت وفيه لتقاليد عصر النهضة، وهي ترى عموما أن الثقافة ثمرة الفكر.

المدرسة الماركسية: التي ترى أن الثقافة في جوهرها ثمرة المجتمع ".

إن هذين الصنفين من التفسيرات يعدان من الوجهة التربوية مشتملين على "فكرة عامة " عن الثقافة، دونما أي تحديد، وهذا ما يحاول مالك بن نبي أن يقوم به حينما يربط ربطا شديدا بين الثقافة والحضارة، إذ على ضوء هذا "الربط " تصبح الثقافة في مفهومه نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، وبهذا يمكن أن يقاس الفرق الضروري بين الثقافة والعلم²، ومن ثمة فالثقافة ليست مجرد علم يتعلمه الفرد في المدارس ويطالعه ، في الكتب، أي بمعنى أنها ذات مضمون معرفي صرف، بحيث تصبح تساوي الناتج التعليمي أو التخصص في ميدان من ميادين المعرفة، وإنما هي جو عام من الأذواق والعادات والقيم التي تؤثر في تكوين الشخصية وتحديد دوافع الفرد وانفعالاته وعلاقاته بالأفراد الآخرين وبالأشياء³.

وحتى يتسنى فهم الفرق بين الثقافة والعلم بشكل أكثر، يورد مالك بن نبي في هذا السياق مثالين؛ المثال الأول يتعلق بفردين كلاهما يمارس وظيفة تختلف عن وظيفة الآخر، ولكنهما ينتميان إلى مجتمع واحد، كطبيب إنجليزي وراعي إنجليزي، أما المثال الثاني: فيتعلق بفردين كلاهما يمارس الوظيفة نفسها، ولكنهما لا ينتميان إلى مجتمع واحد، بل إلى مجتمعين مختلفين

1 مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط 4 (طبعة منقحة ومزودة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، الجزائر، دار الفكر [بالتعاون مع دار الفكر بدمشق (سوريا)] ، 1984 ، ص ص 29 ، 72-73.

2 مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4 (طبعة منقحة ومزودة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 73 .

3 مالك، بن نبي: تأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي، دمشق، دار لفكر للطباعة والتوزيع والنشر، 1986 ص 143.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

في درجة تقدمهما كطبيب صيني وطبيب إنجليزي. فالفردين الأولين تتميز سلوكاتهما إزاء مشكلات الحياة بتمائل معين في الرأي يتجلى فيه ما يسمى بـ (الثقافة الإنجليزية)، أما الفردين الآخرين فتختلف سلوكاتهما أحيانا اختلافا كبيرا، بل عجبيا، ينم عن طابع الثقافة الذي يميز أحد هذين الفردين عن زميله، وذلك تبعا لطابع الثقافة الذي يميز المجتمع الذي ينتمي إليه هذا الفرد عن المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد الآخر " هذا التماثل في السلوك في الحالة الأولى، والاختلاف في السلوك في (الحالة) الثانية، هما الملاحظتان المسلم بهما في المشكلة التي أمامنا، وعليه فالتماثل أو الاختلاف في السلوك ناتج عن الثقافة لا عن العلم¹، مما يدفع ذلك إلى التأكيد بأن السلوك الاجتماعي للفرد خاضع، في جوهره، إلى معطيات وأشياء أعم من المعرفة التي نتلقاها في المدرسة، وأوثق صلة بالشخصية منها بجمع المعلومات، وهذه هي الثقافة في منظور مالك بن نبي.

ومما سبق يمكن تعريف الثقافة بصورة عملية - حسب مالك بن نبي على أنها "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته، كراسمال أولى في الوسط الذي ولد فيه " لتكون هكذا " المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته²، وهي بتعريف أشمل تمثل " المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر "³ والجدير بالاستنتاج من هذا التعريف (العام) هو أنه يتضمن جانبين من الفلسفة: فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة"، أي مقومات الإنسان ومقومات المجتمع، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة انسجام هذه المقومات جميعا في كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها (الشحنة) الروحية، عندما يؤذن ظهور إحدى الحضارات وبهذا المفهوم يتبدى جليا، الموقع المحوري للمسألة الثقافية في حركة البناء الحضاري⁴.

¹ مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4، ص75.

² المرجع نفسه، ص76.

³ المرجع نفسه، ص76.

⁴ المرجع نفسه، ص77.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

غير أنه وبتتبع وجهة نظر مالك بن نبي في الثقافة، نجده يركز، في المقابل، على أنه لا سبيل لعودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية إلا بعد تخليصها من الحشو أو الانحراف الذي يحدثه عدم فهمها على الوجه الصحيح، والمقصود بالحشو هنا هو عدم تصفية عادات وحيات الأفراد بصفة عامة مما يشوبها من عوامل الانحطاط، مثلما هو الشأن بالنسبة للجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، حيث لم تنتج عموماً ثقافة النهضة بها، في البداية، سوى مثقفين حرفيين (أنصاف مثقفين) عبر عنهم مالك بن نبي بصيغة "رجل القلة أو رجل النصف" منبشين في صفوف مجتمع أغلب أفرادهم أميين.

ف "رجل القلة" هذا، لم يكن ينظر إلى مشكلة النهضة إلا ضمن حدود تحقيق حاجات وطموحات شخصية، جعلت من مفهوم الثقافة عنده هو أنها عبارة عن طريقة فقط، ليصبح شخصية بارزة (في البرلمان الفرنسي مثلاً)، وإن زاد فعلم يجلب رزقاً، إن هذا التحريف لمفهوم الثقافة تتجسد نتيجته في ذات ما يسميه مالك بن نبي بـ "المتعالم أو المتعائل" أو بالأحرى مدعي الثقافة، الفهم والتعقل¹، وظاهرة التعالم أو الحرفية في التعليم كمرض اجتماعي يصيب المجتمع، لا تقل خطورة عن ظاهرة "الجهل المطلق" بل إنها لتزيد عنها خطورة، لأن "الجهل" يمكن علاجه، أما "المتعالم" فلا علاج له، ولتقريب الصورة أكثر يسوق "مالك بن نبي" المثال التالي فيقول: "إن كلام هذا المتعالم ليس كـ (تهتهة) الصبي فيها (صبيانية) وبراءة، فهو ليس متدرجاً في طريق التعلم كالصبي، وإنما

(تهتهته) تتمثل فيها شيخوخة وداء عضال، فهو الصبي المزمن"²، والذي ينبغي أن يزاح من طريق الحضارة ليفسح بذلك المجال للطالب العاقل الجاد، كيفما كان وضعه الاجتماعي، لأن الثقافة لا تخص طبقة دون أخرى وإنما تخص المجتمع كله .

¹ عمر كامل، مسقاوي: حول فكر مالك بن نبي. دمشق، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1985، ص ص 75 و 43، 55 - 42.

² -مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة، المصدر نفسه: ص 80.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

وبهذا الفهم يصنع- تدريجيا- التاريخ¹، الذي لا يمكن أن نتصوره-حسب مالك بن نبي بلا ثقافة، لأن المجتمع الذي فقد ثقافته يكون قد فقد حتما تاريخه، فالثقافة في النهاية، هي "الوسط الذي تتكون فيه خصائص المجتمع المتحضر (المجتمع التاريخي)، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع منذ البداية لنفسه، بمن في ذلك الحداد، الفنان، الراعي، العالم والإمام وهكذا يتركب، وتغدو الثقافة من هذه الزاوية عاملا حضاريا تاريخيا، بل وأيضا نظاما تربويا تطبيقيا ينشر بين جميع (شرائح) المجتمع ويوحد بينها على ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي العالم وراعي الغنم...

ينطلق بن نبي في هذا الصدد من قاعدة كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة، وكل تفكير في مشكلة الحضارة هو في الأساس تفكير في مشكلة الثقافة، باعتبار الحضارة في جوهرها مجموعة من القيم الثقافية المحققة وأنه إذا ما أريد للنهضة أن تبرز إلى عالم الوجود فإن علينا أن نواجه مشكلة الثقافة في أصولها، كما يؤكد بن نبي على ضرورة هدم أي موروث ثقافي سالب وتحطيم الإرث المتخلف وتصفية عادات المجتمع وتقاليده وإطارة الخلق مما فيه من عوامل فتاكة أو ركام سالب، لأن تصفية الأفكار الميتة و تنقيته ن الأفكار المميّنة يعدان الأساس الأول لأي نهضة حقة².

ومن هنا نقول أن الثقافة عند مالك بن نبي هي إطار متألف من الأخلاق والجمال والمنطوق العملي والفن الصناعي، وهذا التآلف لا بد من توجيهه عن طريق الأفكار، وهذا ما يريد مالك بن نبي التأكيد عليه من خلال كلمة "ثقافة"، واعتبار كل ذلك ضروري في رسم معالم أية سياسة اجتماعية سليمة، قادرة على تغيير الوضع الموروث عن فترة تدهور عاشها مجتمع مثل المجتمع الإسلامي أصبح اليوم يبحث عن وضع جديد؛ هو وضع النهضة الشاملة واستئناف عملية البناء الحضاري.

¹ المرجع نفسه، ص 80.

² الطاهر سعود: التحلف والتنمية في فكر مالك بن نبي "فلسفة الدين والكلام الجيد"، ط1، 2006، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت لبنان ص 211.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

المبحث الثاني: المجتمع المتحضر من منظور مالك بن نبي.

* مفهوم الحضارة:

- لغة: إن المتتبع للفظ الحضارة، كما ورد في معاجم اللّغة العربية، لا يكاد يخرج عن دائرة الإقامة في الحضر أي المدن والقرى، فهو ضد البداوة، التي تعني الإقامة المتقلبة في البداوي¹، وكما ورد في المعجم الفلسفي "جميل صليبا" بقوله: الحضارة تقي الإقامة في الحضر، بخلاف البداوة والتي تعني الإقامة في البداوي²، وجاء في معجم الاعلام، أن الحضارة من الفعل الثلاثي حضر، أي أقام بالحضر وكما تشبه باخلاق الحضر³.

وكما نجد في قاموس اللغة الفرنسية (Le petit Larousse) يقدم تعريفاً آخر، بأنّها مجموعة من المميزات والقيم الشاهدة على درجة التقدم الإنساني وتطور المجتمعات الإيجابية⁴، وعليه فالحضارة في تجذرها وأصلها اللغوي ترتكز على الجانب السوسولوجي وكأنّها تشير إلى أن الحضارة بين الناس.

وكان أول من أطلق هذا اللفظ هو المفكر العربي "عبد الرحمان ابن خلدون" والذي كان قريب من معنى الحضارة "والذي ميز بين العمران البدوي والعمران الحضري وجعل لفظ حضارة مقابل بدو وبداوة"⁵.

¹ ابن منظور: لسان العرب، حرف الحاء، المجلد4، دار صادر، بيروت، ط1، 2003، ص148.

² جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1978، ص475.

³ لويس معلوف: المنجد في اللغة والاعلام، دار دمشق، بيروت، ط3، 1997، ص139.

⁴ Le petit Larousse illustrée ;2007,P251 .

⁵ أمنة تشيسكو: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي، وارلوند توييني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989، ص17، 18.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

* الحضارة عند مالك بن نبي: يعرفها من عدة جوانب:

- الحضارة باعتبار جوهرها: يعرفها بأنها : " عبارة عن مجموع القيم الثقافية المحققة"، لأنّ كل واقع اجتماعي هو في أصله قيمة ثقافية خرجت إلى حيز التنفيذ"¹.
- الحضارة هي " انتاج فكرة حية تطبع على المجتمع في مرحلة ما قبل التحضر، الدقة التي تجعله يدخل التاريخ ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج المثالي الذي اختاره، وعلى هذا النحو تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل"²

_ الحضارة من خلال عناصرها الثلاثة : الإنسان، التراب، والزمن، " الحضارة : إنسان+ تراب+ زمن" والذي يركبها العامل الأخلاقي والدين يعمل على تماسكها³.

- الحضارة باعتبار وظيفتها: هي " جملة العوامل التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أفراده جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه"⁴، وعليه فالمقياس العام لعملية الحضارة هو أنّ الحضارة هي تلد منتجاتها، فشاء منتجات الحضارة ، هو تحصيل لهياكلها وجسدها لا روحها"⁵.

وعلى هذا الأساس والتعريفات الأربعة أعطى مالك بن نبي مفهوم الحضارة التي تتطلب في معنى واحد من خلال تركيب عناصرها الثلاث (الإنسان، التراب، والزمن).

أمّا عن مراحل الحضارة فيقسم مالك بن نبي الحضارة إلى ثلاث مراحل:

- 1 مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ط4، 1984، ص ص 98-102.
- 2 مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ت: بسام بركة، دار الفكر، دمشق، ط1، 1984، ص49
- 3 مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر، دمشق، ط1، 1989، ص198.
- 4 مالك بن نبي : فكرة الافريقية والآسيوية في ضوء مؤتمر بانونغ، ت: عبد الصابور شاهين، دار الفكر ، دمشق، ط3، 1971، ص134.
- 5 مالك بن نبي: شروط النهضة، ت: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط1، 1989، ص43.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

- **الطور الأول:** وهو مرحلة الروح بحيث يعتبر تمثيلاً أولياً لإشعاع الفكرة الدينية التي تتمكن من النفوس، وتبنيها بناءاً مرصوصاً كما كان ذلك في الوقت بدأت في غار حراء وكان تأثيرها فعالاً في النفوس فكاننا نلاحظ أنه بمجرد ما تنزل آيات الخمر مثلاً: فإنّ الصحابة ينتهون عن شربهاحت أن واحداً كعمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي كان يأتيها في الجاهلية تخلى عنها بتلك السهولة بمجرد أن أعلن إسلامه (نذكر هنا أن كل من الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي كانا قد أصدرتا مرسومين يقضيان لمنع تعاطي الخمر تراجعاً عنه لاحقاً¹).

فالفكرة الدينية تتولى إخضاع غرائز الفرد العلمية شرط تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز في صورة محسوسة لم تلغى ولكنها انضبطت بقواعد نظام معين نتيجة المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية ، وفي هذا يقول "بن نبي" حيثما فقدت الروح فقدت الحضارة وانحطت لأنّه من يفقد القدرة على الصعود لا يلبث أن يسقط بتأثير من جاذبية الأرض².

- **الطور الثاني: مرحلة العقل:**

بعد سيطرة الروح على الغريزة واصل المجتمع تطوره ونموه واكتمال شبكة روابطه الداخلية التي أبرزته الفكرة الدينية إلى النور وهذه المرحلة تمثل في رأي مالك بن نبي سوى تنازلاً لعالم الروح إلى عالم العقل، ومن هنا تنشأ المشاكل المحسوسة لهذا المجتمع الوليد نتيجة توسعه كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله وأثناء مواصلة التاريخ سيره يستمر هذا التطور في نفسية الفرد وفي البنية الأخلاقية للمجتمع الذي يكن عن تعديل سلوك الأفراد وحيث يدخل ذلك نقصاً في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية التي تستمر في نقصانها منذ دخلت الحضارة منعطف

1 الأخضر شريط : مشكلة التاريخ في الحركة التاريخية، دار الخليل العلمية الجلفة، طبعة خاصة، 2003، ص26.

2 مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، بيروت، لبنان، ط3، 198، ص78.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

العقل، ويعتبر مالك بن نبي أن ازدهار العلوم والفنون في أي أمة يلتقي من "علم العلل" والبحث مع بدء مرض اجتماعي معين¹.

تاريخياً يمثل العصر العباسي الذي عرف بالعصر الذهبي للحضارة الإسلامية الذي جمع لنا قائمة أسماء وعلماء ومفكرين شهد لهم التاريخ بأنهم أعلام عصرهم في ذلك، أمثال: الكندي، والفرايبي، وابن سينا، والغزالي وابن النفيس الرازي والخوارزمي وغيرهم من المفكرين، وهذا يعني أن المجتمع التاريخي في هذه المرحلة وصل إلى تكملة بناءه الاجتماعي والذي لخصه مالك بن نبي في هذه المقولة: "إنّ العلاقات الاجتماعية تمكنت بما توجد عالم افكار عالم أنشئ الحضارة وهذا الأخير يتمثل في العهد العباسي الأول والثاني وماتلاه، والذي ازدهرت فيه الفنون والعلوم وتمثلت في الجوامع والمنارات والقصور وغيرها ما انشأت في بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها.

- **الطور الثالث: طور الغريزة:** عندما يبلغ الفرد تمامه من خلال ضوابط الفكرة الدينية يبدأ الطور الثالث والذي تنتهي فيه الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية وتعجز عن القيام بمهمتها في مجتمع منحل حيث يفقد كل ما يربط أواصره وتتحول صالونات الآداب بالأندلس إلى مراقص وملاهي، بدعوة التجديد والتطور والتقدم الحضاري، وتصبح الزخارف والعناية بالمظهر على حساب المخبر غاية المجتمع، وهذا ما اصطلح عليه بن نبي بعالم الأشخاص، فعالم أفكار الحضارة في هذه المرحلة قد أصيب بالشلل وذلك ممثل في عصر الانحطاط من الحضارة الإسلامية، حيث بقيت مقدمة ابن خلدون حروفاً ميتة ومكتبات القيروان وفاس وغيرها تزخر بالكتب لكن غاب المنشغلين المتصفحين لها.

إنّ مرحلة الغريزة هي الطور الحضاري الذي ينبأ عن مجتمع سماه مالك بن نبي بمجتمع ما بعد الحضارة²، وهكذا يرى مالك بن نبي أن تكون في الطور الثالث إزاء علم بعثته الدوافع

¹ سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، ص 96.

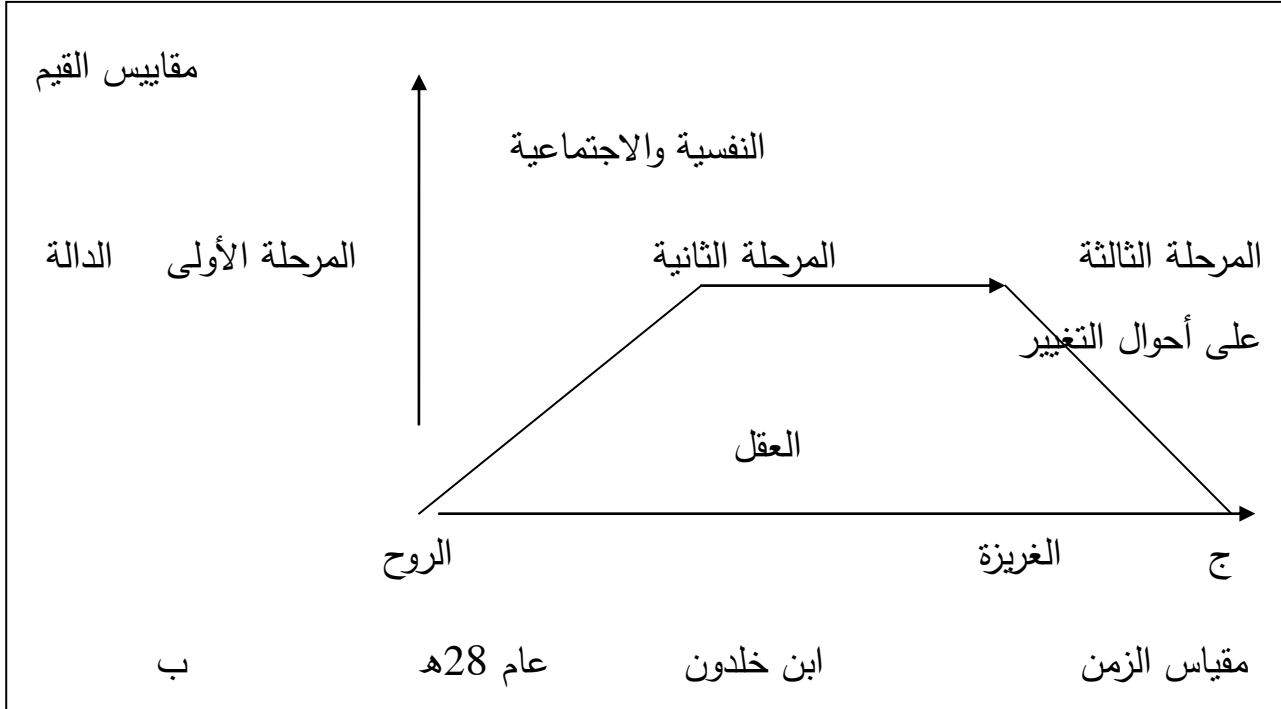
² الأخصر شريط: مشكلة التاريخ في الحركة التاريخية، مرجع سابق، ص 27.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

النامية عن الفكرة الدينية، وأشرقت به أنوار الحضارة غير أنّ دورته انتهت وجرفت الفوضى واستحال تحقيق حضارة.

ومن خلال ذلك تترجم هذه الاعتبارات والمراحل في صورة تخطيطية على النحو التالي¹:

الشكل 1-1: مخطط توضيحي لمراحل الحضارة²:



المصدر: مالك بن نبي: شروط النهضة .

يبرز مالك بن نبي في نظريته أن الإنسان اجتماعي بطبعه، ويسعى دوماً عبر أعماله لتحقيق فطرية الاجتماع الغريزية فيه، ونتيجةً لهذه الميزة الاجتماعية التي ترضي وتلبي حاجياته الفطرية فهو بحاجة دائمة ماسةً إلى تحقيق آليات الانصهار الاجتماعي مع بني جنسه، الأمر الذي يدفعه إلى البحث عن وسائل للتفاهم والتواصل اللغوي والفكري والاجتماعي والثقافي، وبهاته الآليات تتشكل نواة المجتمع، ولا يقوم هذا الأخير ولا يعرف الاستقرار إلا بالفاعلية الثقافية، ولا تتحقق الفاعلية الثقافية فيه، إلا بالممارسة والحقن الحضاري، وأيّ تقاعسٍ في عملية الزرع الثقافي الدؤوب في مسيرة وبنية وعمق المجتمع ستجعل من المجتمع

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة ، مصدر سابق، ص74.

² مالك بن نبي: شروط النهضة ، مصدر سابق، ص74.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

مجتمعاً متخلفاً بدائياً تسوده الهمجية ويحيا بالتخلف والفضى، ولذلك فقد عرّف المفكر مالك بن نبي الحضارة قائلاً: "إنني أوّمن بالحضارة على أنها حماية للإنسان، لأنها تضع حاجزاً بينه وبين الهمجية"، وبذلك يعرف الأستاذ مالك بن نبي الحضارة بالنظر إلى عناصر تركيبها الأساسية وهي: معادلة تركيبها الحدود التالية: (إنسان - تراب - زمن - حضارة)¹.

كما أن عناصر الحضارة لن تجدي نفعاً إذا لم يكن الجامع بينهما هو فكرة الوازع الديني، الذي يسيطر على روح الفرد وحياة الأمة، وبذلك يظل هذا العامل هو المتحكم في سيرها التاريخي، وهذا ما يؤكد مالك بن نبي بقوله: "الحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، والحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعةً ومنهاجاً فكأنما قدر للإنسان ألا نشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية"، وإن الفكرة الدينية تثبت في روح معتققيها الأخلاق الرفيعة، ومن بلسم روحها تنتشر وتتبعث حياة المجتمع الفكرة المتطورة، فإذا فقدت الأخلاق تحررت الغريزة، وهنا تنتصر الهمجية وتتقوى، وبذلك تطلق العنان إلى سقوط الحضارة على إثر تحرر الغرائز، فإذا ما تحررت الغرائز في الأفراد وسيطرت عليهم توجهت عقولهم نحو الكم والأرقام، وفق الإنسان قيمته الروحية الحقيقية وصارت الحضارة في يده وسيلة استعمار، ووسيلة اضطهاد وظلم وفساد وضغط، كما يرى بن نبي أن الحضارة تبدأ ببزوغ فكرة دينية فيه، وتسمى هذه المرحلة بمرحلة الروح، وتكون الحضارة في طور الميلاد والنشأة، ثم تليها مرحلة انتشار وتوسع الحضارة، وتسمى مرحلة العقل، لتنتهي إلى مرحلة الغريزة وهي مرحلة الأفول والتلاشي².

ومن خلال هذا العرض السريع لمفهوم الحضارة عند مالك بن نبي نتبين أنه قد عرفها من خلال ثلاثة مستويات فتعريفه لها من حيث تركيب عناصرها، يشير إلى النظرة النشوئية التكوينية، وتعريفه لها من حيث وظيفتها، يشير إلى النظرة الوظيفية، وتعريفه لها من الناحية التاريخية يشير إلى النظرة التاريخية التطورية البيانية.

¹ أسامة خضراوي : أطروحة الدكتوراه في الأدب في موضوع: "الحياة الاجتماعية في مرآة الأمثال الشعبية المغربية"، سنة 2014 بجامعة محمد الخامس أكادال - الرباط، ص56.

² أسامة خضراوي : أطروحة الدكتوراه في الأدب في موضوع: "الحياة الاجتماعية في مرآة الأمثال الشعبية المغربية"، مرجع سابق، ص58.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

معالم الحضارة عند مالك بن نبي¹:

يرى الأستاذ مالك أن الحضارة لا تستقر في مكان واحد في الأرض، كما أنها لا تتمركز في رقعة جغرافية معينة، أو عند شعب معين، بل تسير وتتحرك من مكان لآخر، ومن شعب لآخر: (لأن الحضارة تسير كما تسير الشمس، فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر).

وتتقاسم حركية قيام الحضارات وسقوطها ثلاثة مستويات نظرية رئيسة كبرى، هي:

1- نظرية حركة التقدم الصاعد للحضارة.

2- نظرية حركة النكوص المتدهور.

3- نظرية التعاقب الدوري.

وتدخل رؤية مالك بن نبي ضمن سياق النظرية الثالثة، التي درست الحضارة كحركة تعاقب دوري سنني، وقد تميزت هذه النظرية بنوعية العلماء والباحثين الذين قدموا قراءاتهم فيها بعمق وموضوعية وإنصاف، وهم:

- المؤرخ والباحث الموسوعي عبد الرحمن بن خلدون، الذي يرى أن خط سير الحضارة في أي أمة من الأمم يمر بالمراحل الأربعة الآتية: (مرحلة البداوة، ومرحلة الحضارة، ومرحلة الترف، ومرحلة التدهور).

- المؤرخ والباحث الموسوعي اشبنجلرت، الذي يرى أن الحضارة كائن حي، يولد وينمو، ويكبر ويهرم، ويموت.

- المؤرخ الموسوعي أرنولد توينبي، الذي يرى أن العامل الرئيسي في نمو الحضارة هو التحديات البيئية والجغرافية والبشرية المحيطة بالمجتمع.

- المؤرخ والفيلسوف هيغل، الذي يرى أن قيام الحضارة متوقف على الصراع القائم بين المتناقضات في نطاق المادة ووسائل الإنتاج.

¹ المرجع نفسه ، ص 59-60.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

المجتمع المتحضر في رؤية مالك بن نبي:

إن المرحلة الأولى من مراحل الحضارة هي المرحلة التي تسودها القيم الروحية، وميزة هذه المرحلة هو الالتزام بالمبدأ التعبدى الشخصي، أو التعبد الجمعي (العلاقات الاجتماعية)، فالمبدأ هو مركز الدوران الذي يحققه هدف نشاط الفرد والمجتمع، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أراد أن تكسر علاقة المبدأ في بعض جوانبها لفائدة علاقة العواطف: (والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها). وكذلك قوله تعالى لمن أرادوا أن تكسر علاقة المبدأ في بعض جوانبها لفائدة الحسابات الظرفية: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)¹.

وقد نبه الأستاذ مالك بن نبي إلى أن مرحلة الروح تطبع المجتمعين بطابعين مهمين هما:

1- خنوس الأنا الذاتية، وانسجامها مع المسار العام للمجتمع.

2- انسداد الفجوات الاجتماعية وغياب الفراغ الاجتماعي.

وفي هذه المرحلة تكون كل الملكات (الغرائز، العقل) تحت سيطرة الروح، فإذا ما أفلنت الروح، وظهرت بوادر الفتور، انتهت مرحلة التألق والإشعاع، لتبدأ مرحلة لها ميزاتها الخاصة وهي مرحلة العقل، حيث تكون جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة العقل، متجهة نحو المشكلة المادية، وتصبح مرحلة العقل مرادفة للحسابات الشخصية والأنانية والمصلحة، وتمزق الجوانب الاجتماعية من خيوط شبكة العلاقات كما حدث في معركة صفين 32 هـ، ثم تحصل بعض التفككات الروحية في الفرد وفي روح الجماعة والمجتمع بانفصال الأساس المعرفي عن البعد الثقافي وبانفصال الأساس الإيماني عن البعد السلوكي، وتبدأ مرحلة الغريزة المتحررة من وصاية الروح والعقل، ويسود المرض الاجتماعي، وتظهر آثاره في علاقات الأفراد وأخلاقهم، فيكون تضخم الأنا وانتفاخها، وتتحلل شبكة العلاقات الاجتماعية عندما يسترد استقلاله وسلطته في داخل الجسد الاجتماعي²، وتميل الكفة في هذه المرحلة إلى التشيئية ويسود قانون الكم

¹ سورة المائدة، الآية 8.

² أسامة خضراوي : أطروحة الدكتوراه في الأدب في موضوع: "الحياة الاجتماعية في مرآة الأمثال الشعبية المغربية"، مرجع

سابق، ص 61

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

والعدد.. ويسود المجتمع الانحطاط، وينتهي المجتمع، ويخرج عن الحضارة، ويعود الإنسان إلى مستوى الحياة البدائية، ولا يعود الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارة، بل تصبح عناصر خاملة لا صلة بينها.

وهذه الظاهرة الحضارية لا تمس الأمة الإسلامية فحسب، بل تتعدها لكل الأمم والشعوب الأخرى لأن (التجارب التاريخية العامة تؤكد أطوار الحضارات هذه، ولا تكاد حضارة ما تنشذ عن هذه القاعدة)، وانطلاقاً من نظرية الأطوار العمرية للإنسان عند مالك بن نبي فإن المجتمع المتحضر هو المجتمع الذي بلغ عمر الفكرة، وتتمثل هذه الفكرة في جملة عوامل معنوية ومادية تتيح لهذا المجتمع أن يوفر لكل فرد من أفراد جميع الضمانات والضوابط الاجتماعية اللازمة لمواصلة عملية التحضر. لأن الحضارة هي: القدرة على القيام بوظيفة أو بمهمة معينة تخدم تقدم ونمو المجتمع.

ووضع الأستاذ مالك بن نبي شروطاً لتحضير المجتمع، وهي¹:

- 1- انتصار عالم الأفكار السليمة على الأفكار الميتة والمشوشة.
- 2- وضوح وأصالة المنهج المتبع في تنمية الفرد والجماعة.
- 3- انعدام فاعلية عقدة القابلية للاستعمار.
- 4- تفاعل مجموع الأشخاص مع ضروب التراب ومجموع الأزمنة في تفاعل معاجلة الناتج الحضاري (إنسان - تراب - زمن - حضارة).

وحتى يحقق المجتمع رقيه الحضاري لابد من حل إشكالات الحضارة الثلاث والسيطرة عليها، وهي: (مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت).

¹ أسامة خضراوي : أطروحة الدكتوراه في الأدب في موضوع: "الحياة الاجتماعية في مرآة الأمثال الشعبية المغربية"، مرجع سابق، 64.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

المبحث الثالث: مالك بن نبي وثلاثية الحضارة (الإنسان - التراب - الزمن)

الملاحظ عن مالك بن نبي رحمه الله، أنه حريص على صياغة أفكاره في شكل صيغ رياضية، وكأنها خلاصات صاغها من خلال قراءته للتاريخ تشبه القوانين الثابتة، وهذه القوانين، قد يكون جوهر أفكارها موجود عند غيره، وقد لا يكون، وإنما الثابت أن ما أنتج من أفكار مبنوثة في كتبه، تتسم بهذه الصفة، وهي أنه يحرص على صياغة الفكرة في شكل منتج مركب من أجزاء، قد تكون هذه الأجزاء منتوجات مركبة هي أيضا من أجزاء، والسر في ذلك فيما يبدو طبيعة تكوينه العلمي الذي غلبت عليه النزعة الرياضية الفيزيائية، وهي صيغة من صيغ البيان التي يستحسنها مسلم القرن العشرين الذي تتقاذفه النزعات العلمانية الإلحادية الداعية إلى استبعاد الدين والتخلي عن القيم الثقافية والأخلاقية، وتسهيلا على الناس ليفهموا الأفكار العميقة والمعقدة بسبب العمق حيناً وبسبب الترجمة آخر، بأساليب سلسلة في جمل بسيطة ممزوجة بروح رياضية يقينية أو تكاد.

والعجيب أن فكرة الصياغة الرياضية هذه لم تقف عند الاستعانة بالرياضيات وحسب وإنما كانت أفكارا بصيغ رياضية، في شكل ثلاثيات، أي أن الفكرة ينتجها، ولكنها متكونة من ثلاثة عناصر، فلا هي أربعة ولا هي إثنتين

- ثلاثية (الإنسان - التراب - الزمن):

صاغ مالك بن نبي هذه الثلاثية في معرض كلامه عن نشأة الحضارة، وفي معرض الكلام عن المنتج الحضاري، حيث قال: الحضارة = إنسان + تراب + وقت، وكذلك المنتج الحضاري، فكل منتج حضاري، هو: ناتج حضاري = الإنسان + تراب + وقت.

(أ) الإنسان:

تتعدد المشاكل التي تحيط بالإنسان باختلاف بيئته وإما بتتبع مراحل التاريخ، ففي الوقت الحالي لا يمكننا أن نوازن بين رجل أوروبا المستعمر، ورجل العالم الإسلامي القابل للإستعمار باعتبار كلاهما في طور تاريخي خاص، فنجد الرجل في بلد أوروبي كبلجيكا لا يتمتع بتوازن اقتصادي في حياته نتيجة عدم الملائمة بين حاجاته وتيار الانتاج الصناعي

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

المسموع، ومن هنا تنشأ مشكلة اجتماعية يعانيتها شعب بلجيكا وهي مشكلة الحركة فهذا الاضطراب لا يشعر به الانسان الذي لا يعيش في هذا التيار، أما في البلاد الإسلامية فإن أزمتها عكس ذلك فهي ليست في الحركة وإنما في الركود، فهي مشكلة الإنسان الذي عزف عن الحركة¹

ولهذا يعتبر الإنسان المرتبة الأولى عند مالك بن نبي، لأنه خليفة الله في أرضه كما جاء في قوله تعالى

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾²، وهو الذي يوجه الأشياء والأفكار والوقت ويصنع النهضة ويحدد القيمة الاجتماعية للمعادلة التي صاغها مالك بن نبي، ولكي يكون هذا الإنسان قادرا على التأثير في مجتمعه من أجل تحقيق نهضة بثلاثة مؤشرات (فكره، عمله، وماله).

1- **توجيه الفكر:** ففكر الإنسان مرتبط بتقدم الأمة أو تأخرها ولتقدم الأمة لا بد على الإنسان أن يعمل على تنقية فكره من كل أنواع التخلف والقابلية للإستعمار والأفكار المميتة والقاتلة، فالأولى ورثها المجتمع عن مابعد الموحدين وهذه الأفكار لم تولد في باريس ولندن وإثما ولدت في الجزائر وتونس والقااهرة وفاس، أما الأفكار القاتلة نستعيرها من الغرب والتي أطلق عليها مالك بن نبي القابلية للإستعمار، التي نعتبرها معرقلا لحركة النهضة لهذا بلغ على تنقية الفكر من هذه الرواسب لكي يستطيع تدعيم عالم الأشياء ويضرب لنا ابن نبي أمثلة بتجارب الغرب، فألمانيا في حرب 1945 فقدت عالم أشياءها حيث دمرت وأتلفت آلاتها وبنوكها ولكنها لم تفقد عالم أفكارها واحتلت مكانتها السياسية في العالم وحققت ثقافة، والتي يراها بن نبي أنها تلازم الإنسان وهي الدستور الخلفي والذوق الجمالي والمنطق العلمي والصناعة، ومن هنا فلا سبيل لعودة الثقافة لوظيفتها

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 81.

² سورة البقرة، الآية 30.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

الحضارية إلا بتنظيف الفكر من الحشو والانحراف وهذا ما يسميه بن نبي " بالحرفية الثقافية "ومن العناصر الضرورية للثقافة لتكوين الفرد:

* **الجانب الخلقى:** يعطي مالك بن نبي أهمية للتوجيه الأخلاقي وماتحملة من تعاليم الدين ومنه فالروح الأخلاقية منحة الالهية لعباده على وجه الأرض ومهمتها ربط الافراد في المجتمع ببعضهم البعض، مصداقا لقوله تعالى ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾¹، لهذا يهدف الدين عموما لدفع النفس الإنسانية إلى الانضباط كي لا تطغى عليها النزاع العدوانية، كالأنانية وحب التملك وغيرها.

* **التوجيه الجمالي:** التوجيه الجمالي عند مالك بن نبي في بناء الإنسان للسير في تحقيق نهضة ويتجلى الجمال عنده في الألوان والأشكال والحركات التي يقبلها الذوق السليم وتنعكس إيجابا على أفكار الفرد فتوجهه للشعور بقيمته وكرامته، فيرقى بسلوكه إلى الفضيلة وتنسق بنيته النفسية وتوافق المبدأ الأخلاقي السليم، فمهما كان المظهر الجمالي طبيعيا أم فنيا فإنه يوجه الكيان الإنساني إلى الرقي بفكره مما يعطي القابلية للابداع².

* **المنطق العملي:** إن المنطق العملي أو العمل التطبيقي لايعني به مالك بن نبي ذلك الشيء الذي دون أصوله ووضعت قواعده منذ أرسطو، وإنما يعني به كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، فهو لا يعني الحصول على لقمة العيش فحسب بل استخراج أقصى مايمكن من الفائدة وهذا المنطق العملي يعد أحد عناصر ومكونات الثقافة، وهو جوهر اتحاد الفكرة بالعمل، مستمدا معايير من رصد إمكانيات الواقع الاجتماعي، حتى يتمكن الفرد من الربط السليم بين العمل ووسائله وأهدافه وهذا هو الشيء الذي يكاد يكون مفقودا في العالم العربي.

¹ سورة الأنفال، الآية 62- -63-64 ..

² مالك بن نبي: تأملات، مصدر سابق، ص202.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

*الصناعة: مصطلح يعني به مالك بن نبي التقنية والعلم والتوجيه الفني، وهو كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم التي تدخل في مفهوم الصناعة، وهذه الأخيرة هي التي تتيح للفرد كسب عيشه ووسيلة للحفاظ على بقائه واستمرار نموه تجعل الفرد باب الحضارة، وذلك عن طريق توجيه طاقاته للإستثمار في هذا المجال الحيوي¹.

2- توجيه العمل: يعد المنطق العملي أحد عناصر النهضة التي تخط مصير الأشياء في الإطار الاجتماعي فتوجه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي عامة، يعني سير الجهود الجماعية من عالم وإمرأة وفلاح ومتقف..، فالمسلمون الأوائل عند تشييدهم للمساجد الأولى بالمدينة، كانت هذه أول ساحة للعمل صنعت فيها الحضارة الإسلامية، وهذا التوجيه هو تأليف الجهود لتغيير وضع الإنسان للأحسن وكل مازاد في البلاد من حرفيين وفنانين تتجه أحوال معيشة الفرد إلى وضعها الطبيعي، فالذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة وإنما منطق العمل والحركة، وهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا، وعلى هذا الأساس لابد من إكرام اليد التي تمسك بالمبرد والفأرة فمنها ستنبثق المعجزات التي تنتظرها وقد انبثقت المعجزة فعلا حيث تحركت اليد فأمسكت الآلة وقلبت التراب، فتوجيه العمل يساهم دون شك في تحقيق نهضة، وإنّ الإنسان هو الشرط الأساسي لكل حضارة وأنّ الحضارة تؤكد دائما الشرط الإنساني² ، فالإنسان إذن هو محور الفاعلية في حركة الحضارة، والحضارة الإنسانية ككل محددة بالسقل الفكري والتكوين الثقافي المتأصلين في بيئة الحضارة³.

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص104.

² مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بيروت، ط1، 1959، ص198.

³ سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، دار النشر، بيروت ، لبنان ، ط1، 1993، ص81.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

3- توجيه رأس المال: يرى بن نبي أنه لابد من فهم قبل كل شيء كلمة " رأس مال" فهي ليست من مصطلحاتنا ولاهي من الشيء الذي تعودنا عليه، فهو مانخلط بين شيئين ممايزيد ثروة الرأسمال¹.

ولتحديد كلا الاصطلاحين بالمعنى الاجتماعي، نلاحظ أنّ الثروة بالنسبة إلى استعمال صاحبها لها، هو يستعملها في إطاره الذي تقتضيه حرفته المحلية، وهنا تظهر الثروة معرفة لنا بطابع مكاسب الشخص غير متحركة وغير الداخلة في الدورة الاقتصادية، فهي شيء محله مستقر في حقل صاحبه، فالثروة تقلب بتقلب صاحبها، ورأس المال ينفصل اسما عن صاحبه ويصبح قوة مالية مجردة، ورأس المال في جوهره هو " المال المتحرك" الذي ينسج مجاله الاجتماعي بمقتضى حركته ونموه في محيط أكبر من محيط الفرد، ولقد سجل التاريخ أن بدأ تكوين رأس المال قد ظهر مع ظهور الصناعات الميكانيكية².

إنّ توجيه رأس المال لايزال في طور التكوين في بلادنا لا يتصل بالكم بل بالكيف، فالرأسمالية قد انحرفت بتقديسها للحرية الفردية والتي يترتب عليها فقدان المجتمع لتماسكه القيمي والأخلاقي، ولهذا نجد أنّ الإسلام قد وفر للمجتمع حرمة ودرجة معقولة من الضمان تسمح لجميع افراده بالحياة الكريمة وفتح السبيل أمام كل فرد.

(ب) التراب:

يرى مالك بن نبي أن الإنسان وحده لا يستطيع أن يخلق تطور، إذ لابد له من مادة تتمثل في التراب وهذا الأخير أيضا يساهم في التقدم وعليه فإنّ ارتفاع قيمة الأمة وحضارتها يكون سبيلا لتقدم ترابها وارتفاع قيمته، وحينما تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدر من الانحطاط ونجده يقول في ذلك: " ومن التراب كل شيء على الأرض وفي باطنها ومعنى التراب هنا ليس المعنى المتبادر إلى الذهن فقد تعمدت أن لا أستخدم كلمة

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 117-118.

² مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 117-120.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

مادة لأسباب فقلت : التراب لأنّ التراب يتصل به الإنسان وحيويته ويتصل به بصورة الملكية، أي من حيث تشرع الملكية في المجتمع الذي حقّق للفرد الضمانات الاجتماعية¹.

فالتراب هنا شيء حيوي في المجتمع من حيث الشرع، وهو يتصل بصورة أخرى من ناحية عالم التراب والمعلومات التي به كالكيمياء، فحينما يحدثنا مالك بن نبي عن العنصر الثاني في المعادلة وهو التراب، يرى أنه لا يبحث في خصائصه وطبيعته، ولكنه يتكلم عنه من قيمته الاجتماعية، وهذه القيمة الاجتماعية مستمدة من قيمة الملكية، ولهذا فإن قيمة التراب مرهونة بقيمة الأمة، وذلك ليقرب لنا المقياس².

إنّ تراب الأرض في الإسلام على شيء من الانحطاط بسبب تأخر القوم الذين يعيشون فيه ويقدم لنا مثالا من الجزائر، حيث أن الأرض الزراعية فيها بدأت تتدهور شيئا فشيئا أمام غزو الصحراء ، فالرمال تمتد في مناطق الرعي والأرض الخضراء وهكذا يذهب التراب سدى وهباءا، وهذه الظاهرة الطبيعية أصبحت تعم كل البلاد الإسلامية وليست أرض البادية فقط وهذا التحول في الأرض الخصبة إلى فلات ثم صحراء يؤدي إلى تحول في الحياة الاقتصادية، فقد حول حرفة البلاد من الزراعة إلى رعي الماشية، ثم إلى لاشيء.

(ج) الزمن:

يعتبر الوقت نهر قديم يعبر العالم منذ الأزل، فهو يمر خلال المدن ويغذي نشاطها بطاقاته الأبدية وهو الذي بتحديدته يتحدد معنى التأثير والانتاج، وهو جوهر الحياة يصب في تاريخ تلك القيم ، يعتبر نهر صامت حيث إننا ننسأه أحيانا، يقول مالك بن نبي عن الزمن يمر خلال المدن يغذي نشاطها بطاقاته الأبدية أويذلل نموها بأنشودة الساعات التي تذهب هباء وهو

¹ المرجع نفسه، ص121.

² سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص272-273.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

يتدفق على السواء في أرض كل شعب، وفي مجال كل فرد، وهو يصير لدى البعض ثروة وفي مجال آخر يتحول عدما ويمزق من خلاله الحياة، وهذا ماينطبق على العالم الإسلامي لاينقصه معرفة شيء اسمه الوقت وإنما ينقصه إدراك معناه فلا ندرك قيمة أجزائه من ساعة ودقيقة وثانية ولا تجزئته الفنية فحظ الشعب العربي الإسلامي من الساعات كحظ أي شعب متحضر ولكن عندما يدق الناقد مناديا الرجال والنساء والأطفال إلى جماعات العمل في البلاد المتحضرة، فهنا هي المسألة المؤلمة ، ولحد الآن لسنا نعرف فكرة الزمن الذي يتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ باعتباره أن أول من ادرك هذه الفكرة الوثيقة بنهضة العلم المادي في عصرنا هو أبو حسن المراكشي¹.

ويرى بن نبي كوسيلة لتثبيت فكرة الزمن عمليا في عقل المسلم من تعليم أفرادنا بتخصيص نصف ساعة يوميا لأداء واجب معين بطريقة منظمة وفعالةن وهكذا تكون حوصلة كبيرة من الساعات انشغلت للصالح العام وبهذه الكيفية ترتفع كمية الحصاد اليدوي والعقلي والروحي فينطبع أسلوب الحياة في المجتمع بهذه الفكرة وهكذا يستطيع الإنسان المسلم أن يمتزج قيمة في التغلب على مشكلة التراب الذي هو مصدر عيشه واستقراره²

ولحل المشاكل الثلاث (الإنسان ، التراب ، الوقت) نقترح مايلي:

- مشكلة الإنسان:

- 1- توجيه الفكر والثقافة للإنسان المتحضر، وذلك بتشجيعه وريه بأبعادها الأربعة: الدين والخلق، والتذوق الجمالي، والعلم، والتمكن الصناعي والتكنولوجي.
- 2- توجيه قيم العمل الجماعي في الإنسان لصناعة الإنسان الكائن المتحضر.
- 3- توجيه ووضوح سياسة المال لخدمة الكائن المتحضر.

¹ سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص84-85.

² محمد البغدادي: التربية والحضارة ، الجزائر، ط2007، ص2، ص ص 134-135.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

ولتبيين الفرق بين العلم الحقيقي القادر على نقل الإنسان لدائرة التحضر يبين الاستاذ مالك أن الإسلام وفر المناخ والنفسي والروحي والاجتماعي المناسب لنمو العلم وازدهاره. فالقرآن الكريم لم يحمل أسرار صناعة الذرة أو غزو الفضاء، ولكنه بث آياته روح وحركية العلم، على العكس من التوراة التي ابتدأت في سفر التكوين على توضيح الظواهر المادية، والإنجيل الذي استفتح على عملية تجسيد الأقانيم الثلاثة، فإن القرآن الكريم بدأ بالعلم والحث عليه، وبذكر أدواته ومناخه الملائم¹.

- **مشكلة التراب:** وهنا يبدو أثر وفاعلية الإنسان ككائن يسعى للتحضر لتحريك التراب الجامد وتحويله إلى منجزات حضارية.

- **مشكلة الوقت:** وهنا يتجه الإنسان لتبيين تأثيره في الاستفادة من الوقت. وهكذا يصبح حل مشكلات الحضارة يعني دخول المجتمع في مرحلة التحضر.

خلاصة:

لا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته النهضوية ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أوتهدمها، فالحضارات المعاصرة والماضية والقادمة، عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن، فهي حلقات لسلسلة واحدة منذ أن هبط آدم على الأرض إلى آخر وريث له فيها، ومن ثم فإن أهم ماينكنا الختم به من آراء ابن نبي في الحضارة كونها مفهوما مركبا يتماشى مع الظاهرة الحضارية في نشأتها وتطورها وأقولها، إذ هي في فحواها انسجام لجهود الإنسانية مع السنن الإلهية في النهوض المادي والمعنوي في شتى المجالات الإنسانية والعلمية والدينية.

¹ محمد البغدادي: التربية والحضارة، الجزائر، ط2007، ص2، ص135.

الفصل الثاني: نظرية الإنسان المتحضر في فكر مالك بن نبي.....

فالغاية من ذلك التقدم والارتقاء بالإنسان إلى أفضل أشكال الحياة الممكنة، إلا أنّ عملية بناء الحضارة تستدعي أسسا يحصرها ابن نبي في عالمي الأشخاص والأشياء، إضافة على حاجتها لمحرّك يعطي العملية البنائية قوتها واستمرارها وهو ما حدّده بـ "الفكرة الدينية" المنتمية بضرورة الحال إلى عالم الأفكار، مشيرا إلى أنّ ذلك لا يتمّ إلا بتتسيق شامل يهدف لتغيير الإنسان من الداخل وفق شروط معيّنة، تمكّنه من أداء وظيفته الاجتماعية وبناء المجتمع المتحضرن واختلال هذه الشروط عند مالك بن نبي سيؤدّي لطغيان هذه العناصر بعضها على بعض، وانزواء الأفكار المحركة للحضارة مقابلها، مما ينذر بأفول شمسها واستفحال التبعية الفكرية والاستهلاكية وأمراض عديدة في جسد المجتمع وفكره.

الفصل الثالث:

المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

تمهيد:

نهدف من خلال فصلنا هذا لمعرفة نظرة الإسلام عامة ومالك بن نبي خاصة إلى " المعرفة " وكذلك إبراز أهم المعالم التربوية التي تضمنها المشروع الحضاري والإصلاحي لمفكر العصر وصاحب مشكلات الحضارة، هذه المعالم التربوية، التي تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن جوانب كثيرة من الفكر التربوي لهذا الرجل العظيم، والذي تميز بنظرة مستقبلية واستشرافية، لا تزال تحتفظ بقيمتها العلمية والعملية إلى يومنا هذا.

ولذلك أردنا أن يأتي مضمون فصلنا الأخير هذا على النحو التالي:

_ **المبحث الأول:** الرؤية الإسلامية للمعرفة عند مالك بن نبي (كيف نظر مالك بن نبي إلى المعرفة؟).

_ **المبحث الثاني:** أبعاد النظرية التربوية في فكر مالك بن نبي .

_ **المبحث الثالث:** رؤية نقدية لمشروع مالك بن نبي الحضاري.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

المبحث الأول: الرؤية الإسلامية للمعرفة عند مالك بن نبي

إنّ مالك بن نبي لم يتعرض لموضوع المعرفة بشكل مكتبي كما هو متعارف عليه عند المتخصصين في هذا المجال، أين نجد التعرض لمختلف قضايا المعرفة يتم بشكل مدرسي، وإنّما تناول هذا الموضوع من حيث أنّه مشكلة مزدوجة، أي أبستمولوجية من جهة وتربوية من جهة أخرى، كما أنّه تناولها باعتبارها مشكلة تواجه العقل المسلم بالدرجة الأولى وهو يحاول النهوض مرة أخرى من أجل استئناف دورة حضارية جديدة.

وقد كان يرى أنّ علاج هذه المشكلة أو مشكلة الثقافة بشكل عام مطلب أولي يسبق أي جهد إصلاحي يروم العقل المسلم بذله على طريق تمكين الأمة الإسلامية من استرجاع موقعها المفقود في التاريخ البشري، ذلك لأنّ الحضارة كما قال مالك بن نبي نفسه لا تقوم على الصدفة ولا على الحظ وإنّما على العلم من حيث هو أساس لا غنى عنه في أي مشروع نهضوي يستهدف إعادة بناء حضارة الأمة الإسلامية¹.

ولعلّ تناول مالك بن نبي هذه القضية من هذه الزاوية بالذات يرجع إلى قناعته بأننا في العالم الإسلامي لا نواجه قضية التعريف بقدر ما نواجه مشكلة الإيجاد أي أنّه عندما تطرق لمشكلة الثقافة التي تنتظم في إطارها مشكلة المعرفة، يعتبر أنّنا لانواجه مشكلة فهم لنموذج ثقافي موجود، كما هو الأمر في العالم الغربي، وإنّما نواجه مشكلة إيجاد نموذج ثقافي منشود أو بالأحرى ترقية ثقافة جديدة تساهم في تجديد وعي المسلم بذاته وبوظيفته تجديد تربويًا يمكنه من ممارسة وظيفته التاريخية ممارسة إيجابية تكون في مستوى الاستجابة إلى نداء الفطرة البشرية المستغيث في كل مكان جراء الإنحراف عن الهدى الرباني المنزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام².

¹ مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، السلسلة: مشكلات الحضارة، دمشق سورية، ص86.

² مالك بن نبي: المسلم ومشكلة الإنسان المعاصر، مقال مخطوط نشر في موقع الشهاب للإعلام 2005.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

وبعبارة أخرى تناول مالك بن نبي مشكلة المعرفة من وجهة نظر وظيفية، ومعنى ذلك أنّه لم يكن قصده من اهتمامه بمشكلة المعرفة مجرد الترف الفكري أو إضافة كتاب إلى ماتزخر به المكتبة الإسلامية من بحوث وإنّما كان يبتغي من وراء ذلك ، تناول مشكلة تواجه العقل المسلم في واقعه الفعلي، بل هي المعضلة التي عطّلته عن النهوض عن كبوته، وذلك من أجل علاجها، ومن ثمّ بيان أحسن السبل وأكثرها فعالية لتمكين العقل السليم من استرجاع الثقة في العلم من حيث هو الأساس الذي تقوم عليه الحضارة.

- الأبعاد الأساسية للمعرفة عند مالك بن نبي¹:

تعرّض مالك بن للمعرفة من خلال ثلاثة أبعاد أساسية:

هي البعد الإبستمولوجي (Epistemological Dimension)، والبعد الحضاري

(Civilizational Dimension) ، والبعد التربوي (Educational Dimension) .

❖ البعد الإبستمولوجي:

أراد مالك بن نبي من خلال البعد الإبستمولوجي محاولة التأسيس الفلسفي لموقع العلم بالنسبة إلى الدين كنظام كوني يحكم حياة الإنسان والكون جميعا، ومن ثمّ وضع الإطار العام الذي ينبغي أن ينتظم تحته العلم، وبعبارة أخرى، أراد مالك علاج قضية الغاية وقضية المنهج بالنسبة إلى العلم حتّى يسترجع هذا الأخير موقعه الطبيعي في حياة البشر، ومن ثمّ يتسنى له أن يقوم بوظيفته في هذه الحياة، وانطلاقا من هذه القناعة، سعى مالك منذ البداية إلى إزالة التباس وهمي غشي العقل البشري وخاصة العقل المسلم، عن العلاقة بين الدين والعلم، فأكد أنّ الصراع المزعوم بينهما ماهو إلّا صراع وهمي لا يمتّ إلى الوجود الواقعي بصلة، فيقول أنّ " التناقض في المسألتين اللتين قرّرناهما كنتيجتين للظواهر الدينية قائم ليس بين الدين والعلم على ما يوحي بذلك

1 مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر المعاصر، السلسلة: مشكلات الحضارة، دمشق سورية، 2006، ص77.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

بعضهم إذ أنّ العلم لم يبرهن على عدم وجود الله أو وجوده، لأنّ النزاع هنا بين دينين بين الألوهية والمادية... بين الدّين الذي يسلم بوجود الله وذلك الذي " افترض " المادة، إنهما مذهبان فلسفيان، ذلك الذي يعتبر الضمير الديني للإنسان ظاهرة أصلية في طبيعته ، ظاهرة معترف بها كعامل أساسي في كل حضارة والآخر الذي يعتبر الدّين مجرد عارض تاريخي للثقافة الإنسانية¹.

لقد أراد مالك بن نبي الانطلاق من هذه النقطة بالذات لأنّه كان يهدف إلى إعادة صياغة العقل المسلم بالشكل الذي يؤهله للتفكير المنهجي من أجل تمكينه من استئناف وظيفته في التاريخ انطلاق من رؤية واقعية ومتكاملة لكلّ شيء، كلّ في موقعه الخاص به ، أو بتعبير سيد محمد نقيب العتاس²، في مناقشته لمفهوم المعرفة ، بأنّ المعرفة تتلخص في كونها إدراك الإنسان للموقع الخاص لكل شيء بالنسبة إلى نظام الوجود الكوني الذي وجدت عليه كل المخلوقات، بشكل يؤدي إلى إدراك موقع الخالق سبحانه وتعالى بالنسبة إلى ذلك كلّه، وتحديد المعرفة بهذا الشكل لا يعدو كونه محاولة لترتيب عمل العقل في تصوره للخالق والمخلوقات والعلاقة بينهما، بشكل يضمن له التعامل السليم معهما ترسيخاً لمبدأ الألوهية والعبودية الذي تقوم عليه الحياة كلها ، وكأساس ينطلق منه الإنسان لعمارة الأرض واستخلافها، غير أنّ "روسناني هاشم " تؤكّد أنّ مجرد الإدراك بهذا الشكل لا يكفي بل لا بدّ من أن يترتب عنه التوازن عملي يؤكد صحة الدعوى فتؤكّد أنّ إدراك الإنسان للموقع الخاص لكل شيء بالنسبة إلى نظام الوجود الكوني الذي وجدت عليه كل المخلوقات بشكل يؤدي إلى إدراك موقع الخالق سبحانه وتعالى بالنسبة إلى ذلك كلّه أمر ضروري ولكن ليس كافياً، إذ لا بدّ من التأكيد على

¹ مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية مرجع سابق، ص78.

² د عمر النقيب، دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 2008، 10، ص13.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

صحة هذه الدعوى ببعد عملي على شكل واجبات ومسؤوليات يلتزم بها الإنسان تجاه هذا الإله الذي تعرّف عليه¹.

وبهذا الصدد نجد أنّ مالك بن نبي رأى أنّه لما كان مبرر الوجود الإنساني هو إقامة حضارة ترسخ معاني التكريم الربّاني للإنسان في هذه الحياة من جهة، وتحقق معاني التعبد والتعبّد من جهة أخرى، " ماكان لحضارة أن تقوم إلّا على أساس من التعادل بين الكمّ والكيف، وبين الروح والمادة، وبين الغاية والسبب، فأينما اختلّ هذا التعادل في جانب أو في آخر كانت السقطة رهيبة قاصمة"²، من هذا المنطلق يرى مالك بن نبي أنّ إعادة الحضارة الإنسانية إلى توازنها الطبيعي قضية عاجلة، بل وحاسمة أيضا، كما يشير إلى ذلك عثمان بكر (1991)، بقوله أنّ " مالك بن نبي يرى أنّ مهمّة إعادة التوازن المفقود في الحضارة الإنسانية المعاصرة ضرورة لا تتحمل التأجيل، غير أنّ إعادة التوازن هذه تتطلب إيجاد تركيب جديد بين العلم والضمير، بين الأخلاق والتقنية، بين عالم الغيب وعالم الشهادة"³.

كما يوضح مالك بن نبي في مقال غير منشور يتحدث فيه عن إفلاس الحضارة الغربية وافتقادها لعنصر التوازن وكيف أنّ المسلم هو الأمل في تعويض هذا الإفلاس وإنقاذ البشرية مرّة أخرى، يقول في هذا المقال أنّ " إنسان هذه الحضارة، أي الحضارة الغربية، قد تورّط في الوضع المتناقض للإنسانية الذي أسسه هو في هذا العالم، إلى درجة لا تسوّغ له بعث القيم الإنسانية من جديد فهو متورّط في عالم الأشياء الذي صنعه بعقله ويده، تورّطا لا يسوّغ له القيام بمهمّة تخلص الإنسانية من ورتطتها الشنيئة وهذا المجال الذي يخص الإنسان من جوانبه الكيفية هو بالذات الذي يبدو مجالا

¹ Rosnani H. Educational Dualism fu Malaysia. Implicatiotts Jor Theoty and practice. zo04. znd

Edition. The Other Press. Kuala Lumpur. Malal.sia.p98/

² مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي،، دار الفكر المعاصر، السلسلة: مشكلات الحضارة، 1986، ص169.

³ Bakar.o.MalikBennabi,sPhilosoplyofScience.1991.Papero,,,,,z#,,"i

Seminar on Malik Bennabi. Univemiç Malay4 t<uala Lumpur, Malaysia.p3

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

لاختصاص جديد قد يكون اختصاص المسلم، لأنّه في نقطة البدء، غير متورّط في عالم الأشياء المطبوعة بطابع المادة في سلوك طبقة البرجوازية الكبيرة والصغيرة، وفي تفكير الجناح الآخر من المجتمع المتمدّن¹.

❖ البعد الحضاري:

إنّ أوّل مابداً به مالك بن نبي عند معالجته لهذا البعد تأكّيده على أهمية الدور الذي قام به القرآن في تثمين مفهوم العلم والتنويه بموقعه في الحياة البشرية، باعتبار أنّ العلم أداة حاسمة لإنجاز مشروع الحضارة الإنسانية كما يحدّد معالمها القرآن الكريم الذي لم ينصبّ اهتمامه على تفاصيل النظريات العلمية و تطبيقاتها بقدر ما انصبّ على المناخ النفسي الاجتماعي الضروري لعمل العقل البشري بشكل سليم، ذلك لأنّ فعالية الأفكار إنّما هي رهن بالمناخ النفسي الاجتماعي الذي تنشأ فيه وتنمو وتتحرّك². إذن فالمناخ النفسي الاجتماعي الإيجابي الذي يتيح للعلم أن يتطوّر كما سبق له أن تطوّر في العهد الإغريقي والروماني، هو أهم ميزة تميز بها منهج القرآن في التعامل مع العلم، فإذا كان تطور العلم لا يرتبط بالمعطيات العلمية فحسب بل بالظروف النفسية والاجتماعية التي تشكّل مناخاً معيناً فإنّ اهتمامات العقل تتغير من عصر إلى آخر ومن حضارة إلى أخرى بحسب طبيعة المناخ النفسي والاجتماعي التي تحيط به والتغيرات التي تعترّيه³، ويؤكّد هذه الحقيقة المستشرق "فرانز روزنتال"، مبيناً دور القرآن الكريم في تثمين مكانة العلم في حياة المسلمين بقوله أنّ " في الحضارة الإسلامية، احتلّ العلم مكانة لا مثيل لها في كل الحضارات الأخرى، إنّه طبع

¹ مالك بن نبي : المسلم ومشكلة الإنسان المعاصر، مقال مخطوط نشر في موقع الشهاب للإعلام 2005..

² سعيدوني ناصر الدين: المفكر مالك بن نبي وأسباب كارثة 1967-2003، رؤى مجلة فكرية فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل الإسلامي ، السنة الرابعة، العدد 20، مركز الدراسات الحضارية، باريس، فرنسا، 2003.

³ مالك بن نبي ، أعمال المستشرقين، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 2011، ص 36.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

اهتمامات المسلمين في حياتهم الفكرية والروحية والاجتماعية بطابع خاص متميز¹ ولعلّ ظاهرة هجرة العقول المفكرة إلى بلاد الغرب خير دليل على أهمية المناخ النفسي والاجتماعي المحفّز للعقول على العطاء والإنتاج العلمي الرصين.

وطبيعة المرحلة التاريخية التي يمرّ بها المجتمع لها أيضا تأثيرها على منهج تعامل العقل مع العلم فهما وتوظيفها، ولذلك لمّا بلغت الأمة الإسلامية قمة الحضارة أصبح اهتمام المسلمين بالعلم اهتماما لا مثيل له في التاريخ، إذ تحقق على أيديهم ما لم تحققه البشرية من قبل² ، وبفعل تلك التربية القرآنية استمرّ اهتمام المسلمين بالعلم فهما وتوظيفها، فالقرآن الكريم أقنعهم بأنّ الحضارة لا تبنى بالصدفة ولا تستمرّ بالحظّ وإنّما بالعلم ، والعلم المقصود هنا هو العلم المقترن بالأخلاق التي تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم لأنّه حيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطّت، حيث أنه عندما بلغت الأمة الإسلامية عصور الانحطاط فقد العلم معناه ، كما "فقد الإنسان تعطشه إلى الفهم وإرادته للعملان فتبدّدت آثار العقل في وسط لا يستطيع أن يفهمه".

وفي هذا السياق يضرب مالك بن نبي مثلا حول الوضع بالعلامة "عبد الرحمان بن خلدون" الذي " جاءت أفكاره إمّا مبكرة أو متأخرّة عن أوانها: فلم تستطع أن تتطبع في العقبية الإسلامية، التي فقدت مرونتها الخاصة، كدلالة على أنّ العلم قد فقد موقعه في سلّم اهتمامات المجتمع وأنّ معايير التعامل مع الأفكار والأشخاص والأشياء قد اختلت، ولهذا فالأفكار تفقد قيمتها التاريخية وفعاليتها الاجتماعية إذا انعدم المحيط الذي يبعث فيها الروح، ولعلّ السر في هذه المشكلة في نظر ابن نبي ، هو أنذ العبقرية الإسلامية فقدت قدرتها على التقدم والتجدّد وباستمرار العالم الإسلامي في السقوط فقدّ العلم معناه وقيّمته"، وهكذا أصبح العلم غير ذي قيمة في عالمنا الإسلامي، وأصبح

¹ Rosenthal.F. Knowledge _Triunphant. Tlrc concept of Knowledge in Medieval Islan.191} Leiden. E.J. Britt..

² مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص31.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

العالم أو من حذا حذوه آخر من يراعى ويعتبر في سلّم التقدير والاعتبار الاجتماعي ماديا أو معنويا، فاختلط الأمر علينا في أيّهما أولئك الرأس أو القدم وهنا إشارة لابد منها وهي أنّ من أهم المنعطفات التي رسّخت إنحطاط قيمة العلم عندنا انقلاب القيم وتوقف العقل المسلم على الاجتهاد، أو ماسماه مالك بن نبي جمود التفكير الإسلامي¹.

وقد أشار بن نبي إلى مثاليين للدلالة على توقف العقل المسلم عن الاجتهاد والإبداع، أمّا الأول فقد جاء في سياق نقده للتعليم في البلاد الإسلامية إذ أنذ مضمون التعليم في مدارس الإصلاح هو المضمون نفسه منذ ستة قرون، على الرغم من أن الأستاذ وتلاميذه أصبحوا يجلسون على الكراسي ويحملون

القماطر...²، ويوضح مالك بن نبي في مقام آخر مشيرا إلى غياب التفكير المنهجي وعقلية الاجتهاد والإبداع وسيادة العفوية وعقلية التقليد، بقوله إنّه " إذا حللنا جهود المصلح الإسلامي وجدناها حسنة النية، ولكن لا نجد فيها رائحة منهج، بل إنّ حسن النية هذا قد تحطّ قيمته الاجتماعية أثناء التطبيق ، لأنّ المصلح الإسلامي لم يبين محاولته الإصلاحية على أساس نظرية محددة للأهداف والوسائل وعلى تخطيط دقيق للمراحل ولم يهتم بأن يرسم برنامجه الإصلاحي، مقدرا أنّ الزمن سيوفّق في حل المشكلات، ولم يكن طموحا متوجها إلى الخلق والإبداع اكثر ممّا هو متوجّه حتى الآن على التقليد"³، فالعبرة إذا ليست بحسن النية بقدر ماهي بفاعلية الجهد الذي يقوم به المصلح من حيث هو جهد منهجي هادف يقوم على أساس وعي بصير بالمشكلة وأسبابها ومظاهرها وآثارها وبدلائل علاجها.

¹ المصدر نفسه، ص84.

² مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص78.

³ مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية، مصدر سابق، ص78.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

أما المثال الثاني فيشير فيه إلى تعامل جدته مع المكنسة التي كانت تستخدمها لتنظيف البت، فقد كانت من حين لآخر تصب جلّ غضبها على المكنسة القصيرة كلما شعرت بألم يقصم ظهرها بسبب انحنائها للإمساك بهذه المكنسة الأرضية التي لم تكن تملك غيرها، فيعقّب مالك بن نبي على هذه الظاهرة مشيراً إلى أنّه كان يكفيها لو أنّها أعملت عقلها، أن تخرج إلى ساحة الدار فتأخذ قطعة من جريد النخل المترامي في الأرض وتلصقها في المكنسة وتكفي نفسها شر اللعنة وضرر الإنحناء ، ولكن مالحيلة والعقل المسلم معدّل عن العمل منذ قرون¹.

ولعلّ هذان المثالين كافيين للدلالة على عجز العقل المسلم، نخبة وعامة، عن التفكير الإبداعي المتميّز، بينما كان المجتمع الإسلامي الأول قمة في أعمال العقل وتوظيفه في علاج المشكلات الواقعية توظيفا محكما وموفقا، وأمام هذه الوضعية دعا مالك بن نبي إلى ضرورة إعادة بناء كل المفاهيم التي لا تشكل مفهوم العلم والمعرفة فقط بل كل مكونات المنظومة الفكرية والثقافية للعقل المسلم باعتبار أنّ هذه الوضعية المتأزّمة تشكل الأزمة الثقافية والتي هي حسب، السبب الأصلي البعيد للحضارة الذي يسبقه انحلال شبكة العلاقات الاجتماعية لأنّ أي إخفاق يسجّله مجتمع في إحدى محاولاته الحضارية إنّما هو التعبير الصادق عن درجة أزمته الثقافية².

وفي سياق الحديث عن الأزمة الثقافية عند المسلمين يشير مالك بن نبي إلى بعض أهم مظاهر هذه الأزمة ذات الصلة المباشرة بالخلل الذي أصاب العقل المسلم ألا وهي ظاهرة توقف العقل المسلم عن الاجتهاد، وغلبة النزعة العاطفية على العقل المنطقي، ومظاهر المشكلة كثيرة ومتعددة، غير أنّ توقّف العقل المسلم عن الاجتهاد

¹ مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مصدر سابق، ص 110.

² مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مصدر سابق، ص 98.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

هو الأصل الذي تمخّض عن كل هذه المظاهر المرضية، وبتعبير مالك بن نبي، مشكلة البنية الذهنية للإنسان المسلم¹.

وفي ضوء كل ماسبق ، اعتبر مالك بن نبي أنّ كل محاولة للبناء الحضاري ، لا بدّ أن تركز على العلم إذا أريد لها النجاح في تحقيق مقاصدها²، ولهذا فعلاج مشكلات المسلمين لا بد أن يراعي هذا المنطلق، كما ينبّه مالك بن نبي المسلمين محدّراً لهم ممّا أسماه ظاهرة التكديس التي تعدّ مظهراً من مظاهر عجز العقل المسلم عن التعامل الإيجابي، مع ما يسمّى الحضارة المعاصرة، عندما اتّجه المسلمون إلى التعامل مع منتجاتها بدلا من محاولة فهم أسرار هذه التجربة وجذورها التاريخية، ومن ثمّ الاستفادة من ذلك في بناء حضارة اسلامية جديدة ، فجد مالك بن نبي هنا ونحن نناقش موضوع طبيعة المعرفة ، يشير إلى أنّ مفهوم التكديس كظاهرة مرضية لم تتوقف تداعيتها على مستوى الوسائل والمنتجات المادية فقط، وإنّما تجاوزت ذلك إلى ما يسمّى عنده تكديس المعلومات والأفكار، وهذه اللفتة ملاحظة منهجية مهمة للتمييز بين العلم كقواعد وقوانين تفهم وتستوعب لتصبح موجّهات للتفكير والتصرف لدى الإنسان وبين المعلومات كمخزون كمّي لا يحمل بالضرورة ما يساعد الإنسان على المواجهة الناجحة لمشكلات الحياة الواقعية، إذا علمنا أنّ العلم كما يؤكد ذلك، مالك بن نبي، هو الجهد الذي يسعى من أجل البحث عن الحق والحقيقة في كل ميدان ، في الأخلاق والتشريع والاجتماع ، والطب والطبيعة وغير ذلك³ ولعلّ أهم ما يضاف إلى هذه الملاحظة هو أنّ البحث عن الحق والحقيقة لا يتوقف عند حدود التعرف عليهما بل يتجاوزهما إلى محاولة الاسترشاد بهما وتوظيف ذلك في خدمة الأهداف التاريخية للوجود البشري في هذه الحياة.

¹ مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، سلسلة : مشكلات الحضارة، دار الفكر المعاصر ، دمشق ، سورية، ط2، 1988، ص39.

² مالك بن نبي: المسلم في عالم الإقتصاد، دار الفكر المعاصر، ط3، ص18.

³ مالك بن نبي ، أعمال المستشرقين، مصدر سابق، ص48.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

ولهذا فضمان تمتلّ صحيح لمفهوم العلم من حيث هو الأساس الذي تبني عليه كل محاولة لبناء الحضارة أمر ذو أهمية بالغة ، وأنّ أي محاولة لإعادة بناء الحضارة الإسلامية لا بد لها من أن تقوم على أساس إعادة الاعتبار لما يعرف بالفقه الخالص، أي العلم الصحيح بالإسلام الصاقي كما تمتلّه الرسول صلّى الله عليه وسلم.

❖ البعد التربوي:

تناول مالك بن نبي طبيعة المعرفة من وجهة نظر تربوية، من خلال تعرّضه لثلاث قضايا مهمّة هي ما يمكن الاصطلاح عليه بمبدأ الغائية، والمنطق العملي، والأساس الأخلاقي.

* مبدأ الغائية:

يرتبط العلم أو المعرفة بشكل عام عند مالك بن نبي بمبدأ الغائية، إذ من غير الممكن أن نتصور عملية لاكتساب العلم أو ممارسته تخلو من وجود غاية يتجه إليها الفعل البشري، ولهذا فقد كانت أسمى الغايات التي ينبغي أن يتجه إليها العلم خدمة مبدأ التكريم الرباني للإنسان وترسيخه في هذه الحياة، أي تحقيق مقاصد الوجود البشري في هذه الحياة، " فالعلم إذا لم نتعامل معه على أساس وظيفته النفسية الاجتماعية يصبح صنفا من الرياء وسببا للتنافس بين الأسر البشرية ومن ثمّ يفقد كل فعاليته الاجتماعية¹ لأنّه انحرف عن غايته الأصلية، القيام بوظيفة الإصلاح في الأرض بدءا بالتعرف على الحق والحقيقة وانتهاء بالالتزام بهما والدفاع عنهما.

وبسبب هذه الوضعية المرضية ، غدا العلم عندنا سلعة رخيصة ، وهذه الوضعية تذكرنا بمقاله الفيلسوف محمد أقبال وهو يصف لنا حالة العلم والتعليم في بلاد العرب والمسلمين

¹ مالك بن نبي: تأملات مصدر سابق، ص190.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

والجيل الذي تخرج من ذلك بقوله " إنَّ التعليم اعتنى بتربية عقل الفرد وتنقيف لسانه، ولم يعتن شيئاً بتغذية روحه وقلبه، وتقويم أخلاقه، وتهذيب نفسه فنشأ جيلاً غير متوازن القوى، غير متناسب النشأة... فكان جيلاً فارغ الأكواب ظمآن الشفتين ، مصقول الوجه، مظلم الروح مستنير العقل، كليل البصر، ضعيف اليقين ، كثير اليأس، لم يساعد في هذا العالم شيئاً، هؤلاء أشباه الرجال ولا رجال، ينكرون أنفسهم ويؤمنون بغيرهم، بنى الأجنبي من ترابهم كنائس وأديارا شباب ناعم، رخو، رقيق كالحرير، يموت الأمل في مهده في صدورهم..."¹.

* المنطق العملي:

إذا كان العلم غائياً من حيث المبدأ فإنّه ذو بعد عملي في طبيعته أيضاً، إذ كل علم لابد أن يكون مقروناً بالعمل، وإلا هو خال من معناه ودلالته بل ومبررات وجوده، لهذا فالعلم لابد له من ترجمة عملية تؤكد حقيقة وجوده، ولابدّ من أن يترجم ذاته إلى عمل منهجي، وحركة هادفة ونشاط دؤوب وإنتاج مفيد، وإذا لم يصل إلى هذا المستوى من التجسيد العملي سوف يبقى ترفاً².

ومما أشار إليه مالك بن نبي في سياق مناقشته عجز العقل المسلم عن التفكير العملي فالفكرة والعمل الذي تقتضيه يمثلان كلاً لا يتجزأ، والواقع أننا عندما نحلل نشاط له علاقة بالحياة العامة للنهضة نجده مبتورا من جانب أو آخر: فإما فكرة لا تحقق ، وإما عمل لا يتصل بجهد فكري، وليس في قائمة النشاط الاجتماعي ما يصحّ أن يعدّ ضئيل القيمة، فكل حركة في ذلك أثرها في تقدم المجتمع³ ، وقد دأب بن نبي على تسمية قدرة العقل على الربط بين الفكرة ومظهرها العملي المنطق العملي " Practical Logic " أي ارتباط العمل بوسائله الخاصة ومن ثم استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة.

¹ الندوي: أبو الحسن ، من روائع إقبال، 1978 ن ط2، دار القلم بيروت، لبنان، ص30.

² مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه،، مصدر سابق، ص33.

³ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص83.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

لقد لاحظ مالك بن نبي الضرورة القصوى لتربية الإنسان المسلم على هذا المنطق الذي يجسد البعد العملي وينفث فيه الروح ليدب حركة هادفة ومنتجة.

* **الأساس الأخلاقي:** تعرّض مالك بن نبي للأساس الأخلاقي للعلم والمعرفة بشكل موسع في سياق مناقشته لمشكلة الثقافة فهو حين يعرض نظريته في الثقافة يشير إلى ضرورة النظر إليها كونها نظرية في السلوك أكثر من اعتبارها نظرية في المعرفة (شروط 82)، وهذا ليجلي لنا أهمية البعد الأخلاقي في حياة الإنسان، والثقافة بالنسبة إلى مالك بن نبي هي الإطار النفسي والاجتماعي الذي يستوعب كل المجتمع بأفكاره وأشخاصه وأشياءه، ولهذا فالعلم ينتظم داخل إطار الثقافة، كما يتشكّل من حيث مفهومه ووسائله ووعاياته من خلال النموذج الذي تحدّد الثقافة.

ولعلّ التركيز على قضية البعد السلوكي الأخلاقي للثقافة هنا، هو في الحقيقة إشارة إلى القيم والمبادئ والمثل التي يفترض أنّها تشكّل صمام الأمان للمحافظة على العالم الثقافي من أي انحراف أو خلل، والبعد الأخلاقي هو في حقيقة الأمر تلك الضوابط التي تمثّل الحدود التي يجب على العلم والعالم أيضا أن يمارس وظيفته النفسية الاجتماعية في إطارها، وهذا من أجل أن يحافظ العلم على شرفه وقدسيتها وقيمتها التاريخية في الحياة البشرية، وهنا نلمح اعتراف صريح لمالك بن نبي في هذا السياق بقوله: "أنه بعد تجربة قرن كامل من الزمان ندرك أنّ العلم لا يستطيع وحده وبوسائله الخاصة اصلاح ما أفسده هو"¹، بل لا بد له بتعبير مالك بن نبي نفسه، من الضمير أي الأخلاق كما أنّ نهضة العالم الإسلامي ليست في الفصل بين العلم والقيم وإنما هي في الجمع بين العلم والضمير والأخلاق .

نلاحظ أنّ مالك بن نبي تناول موضوع المعرفة من حيث هي مشكلة تواجه العقل العقل المسلم بسبب الطلاق القسري الذي حصل بين المعرفة والضمير، أي أنه عالج مشكلة المعرفة من وجهة نظر وظيفية، ومن هنا لم يكن اهتمامه بها مجرد ترف فكري أو محاولة لإضافة

¹ مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، مصدر رسابق، ص 66..

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

كتاب إلى المكتبة الإسلامية ، وإنّما كان يبتغي تحليل مشكلة واقعية تواجه العقل المسلم المتخلف من أجل علاجها ومن ثمّ بيان أحسن السبل وأكثرها فعالية لتمكين هذا العقل من استرجاع الثقة في العلم باعتباره الأساس الذي تقوم عليه الحضارة.

وانطلاقاً من هذا الإطار المنهجي ، حاول مالك بن نبي تحقيق هدفين أساسيين ، أمّا الأول فهو تمكين العلم أو المعرفة بشكل عام ، من استرجاع موقعها في الحياة البشرية حتى يتسنى لها القيام بوظيفتها الكونية، من خلال الدعوة إلى إعادة التوازن المفقود بين ثنائيات العلم والضمير ، والتكنولوجيا والأخلاق، وعالمي الغيب والشهادة، ثمّ تعاد بناء على ذلك صياغة منظومة معرفية يتمّ من خلالها تشكيل النموذج البشري في هذه الحياة، أما الهدف الثاني فهو إعادة تشكيل العقل المسلم بشكل يتمكن فيه من إدراك أنّ الحضارة لا تقوم على الصدفة ولا على الحظ وإنّما على العلم من حيث هو أساس لا غنى عنه في أي مشروع نهضوي يستهدف إعادة بناء حضارة العالم الإسلامي¹.

1 مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص88.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

المبحث الثاني: أبعاد النظرية التربوية في فكر مالك بن نبي

سنحاول تسليط الضوء في مبحثنا هذا على الفكر التربوي عند أحد أعظم رجالات الفكر في تاريخ الجزائر المعاصر وهو "مالك بن نبي"، وذلك بإبراز أبعاد نظريته التربوية الذي تضمنه مشروعه الإصلاحية والحضارية.

* التربية، الطبيعة والمفهوم:

حيث يشير معجم لسان العرب أنّ التربية من حيث الأصل اللغوي ترجع إلى ثلاثة جذور:

الأول: "رب" من قولهم "ربيعة": متنته، ربيعة: دهنته وأصلحته، و"ربيته": زادها وأتمها وأصلحها، و"ربه يربه": يكفل بأمره، و"رباه تربية": أحسن القيام عليه حتى يفارق الطفولة.

الثاني: "ريو" من قولهم: رب الشيء، يريو، ريو: زاد ونما.

الثالث: "ربي" قولهم: منربيت رباء وربيا، أربى ربا، ومعناه أيضا نشأت فيهم¹.

ومن خلال ذلك فإنّ مفهوم التربية لغة يقصد به اصلاح الفرد وتنشئته على الصلاح في كل مايتعلق بالإنسان من جوانبه المتعددة "الروح والقلب والعقل".

و لقد بذل علماء التربية محاولات متعددة من أجل صياغة معاني مصطلح التربية، والواقع أن هناك صعوبة في تعريف التربية، حتى أن بعض العلماء والمفكرين قد تجنبوا الحديث عن معنى التربية، وتعود تلك الصعوبة إلى اتساع كلمة تربية، فهي الحياة بكل مناحيها، إذ أنها تشمل جميع القوى والعوامل المؤثرة في الإنسان.

بالإضافة إلى إن الأديان والآمال القومية لمجتمع من المجتمعات، تؤدي إلى مفهوم للتربية يختلف عنه في مجتمع آخر، وعليه اختلف الناس في نظرتهم إلى التربية، لأنهم ببساطة يختلفون في نظرتهم إلى الحياة، فالتربية ليست إعدادا للحياة بقدر ما هي الحياة ذاتها، أمّا

¹ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، تونس، 2003، ص 119.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

التربية عند مالك بن نبي هي " عملية تثقيف متواصلة"¹ وتتمثل هذه العملية في ذلك المحتوى النفسي الذي يتأسس على تركيب عناصر ثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد، بل هي عملية ديناميكية متطورة مع تطور المجتمع، فيقول: " ليس الهدف من التربية أن نعلم الناس أن يقولوا أو يكتبوا أشياء جميلة ولكن الهدف أن نعلم كل فرد فن الحياة مع زملائه وأن نعلمه كيف يتحضر"²، فإن نبي يرى أن التربية هي تربية للحرية عن طريق الحرية، حتى يتمكن الإنسان المتربي من أن يفهم ويشعر أنه هو نفسه صانع مصيره، عن طريق فسح المجال لأفكاره، لأن تتبلور وتظهر في سلوكياته وتتفاعل مع النسق العام لحركة المجتمع.

ولن يتأتى ذلك في أية أمة من الأمم من دون سياسة عليا وتحديد واضح للأهداف، ومن ثمة إنتاج مناهج تعليمية وتربوية، تتسجم مع هذه السياسة العليا وهذه الأهداف، حتى تكون المحصلة والثمرة، شعوبا تحمل قدرا كبيرا من الانسجام والترابط والوحدة.

أي أنّ طبيعة التربية عند مالك بن نبي تجمع بين الفرد والمجتمع وهي نظرة وسطية وليست متطرفة، وهي تهدف الى تركيب عناصر ثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد .

* مفهوم التربية ودلالاتها عند مالك بن نبي:

أ- أزمة الفكر التربوي:

يرى مالك بن نبي أنّ أسباب الأزمة التربوية التي يعيشها المسلم اليوم تعود إلى غياب الشروط النفسية والزمنية اللازمة لتطور المجتمع " فأزمة العالم الإسلامي لم تكن أزمة الوسائل وإنما هي أزمة أفكار، ولكي نتغلب على هذا المرض علينا أن نكتشف طريق الأمة المرشدة"³ ويقرر مالك بن نبي أنّ صناعة التاريخ والحضارة تتم تبعا لتأثير ثلاثة عوالم أساسية هي : عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء، بحيث نجد عالم الأشخاص يتعلّق بالأفراد والمجتمع، وعالم الأفكار يتعلّق بالثقافة، أمّا عالم الأشياء فيتعلّق بالمادّة، وهذه العوالم الثلاثة لا

¹ محمد بغدادى باي، التربية والحضارة، بحث في مفهوم التربية طبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي، دار عالم الأفكار، الجزائر، ط2006، ص1، 215-217.

² مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص99.

³ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، ط16، 2014م، ص117.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

تعمل متفرقة، بل تعمل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقاً لنماذج إيديولوجية من (عالم الأفكار) يتم تنفيذها بوسائل من (عالم الأشياء) من أجل غاية يحددها (عالم الأشخاص)¹ فأزمتنا هي أزمة "إنسان" فحن اليوم بحاجة إلى الإنسان الجديد، الإنسان المتحضر، الإنسان الذي يدخل إلى التاريخ الذي خرجت منه حضارتنا، لأن المشكلة هنا تكمن في الإنسان الذي تغير وفقد همته الحضارية، وكذا عدم قدرته على إحداث تركيب ديني جديد للتراث والوقت كما فقد كل مؤهلاته التي ترفعه إلى مستوى القدوة والقيادة،² ويرصد مالك بن نبي أهم صور الإختلال في العالم الثقافي (عالم الأفكار) والذي يتمثل في الأصعدة التالية:

- **على الصعيد القيمي:** حيث تحتل الأشياء القمة في سلم القيم، وتتحول الأحكام النوعية إلى أحكام كمية دون أن يشعر أصحاب تلك الأحكام بانزلاقهم نحو (الشيئية) ، أي نحو تقويم الأمور بسلم الأشياء.

- **على الصعيد الاقتصادي:** تستلب الشيئية وطغيان الأشياء قدرات المجتمع في ميادين أخرى خصوصاً ميدان التخطيط، عندما يواجه بلد ما مشكلة التخلف ، إما بإستثمار رؤوس أموال أنبية، أو بزيادة معدل الضرائب التي تشل كل أوجه النشاط الفردي.

- **على الصعيد السياسي:** يعاني العالم الثقافي من هيمنة "الفكرة الوثن" ، وهي منتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي المعاصر، وتكون أحياناً، سبب مانشده من حالات افلاس سياسي مذهل، إن تناقض الفكرة والوثن قد ضمن بصفة عامة للإستعمار نجاحه الباهر في الإجهاض السياسي في بلادنا، مستخدماً غالباً متقفينا أنفسهم³.

- **على الصعيد الأخلاقي:** يظهر الخلل عندما يتجسد المثل الأعلى في شخص ما، فيكون هناك خطر مزدوج فسائر أخطاء الشخص ينعكس ضررها على المجتمع الذي جسّد مثله الأعلى ، وسائر إنحرافات ذلك الشخص تترصد كذلك في خسائر (البيروقراطية)، وتكون هذه الخسارة إما في رفض للمثال الأعلى الذي سقط، وإما في عجزنا عن إمكانية تعويض المثال

¹ مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق ، دار الفكر، 9ط، 2012، ص27.

² مالك بن نبي مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر، سوريا ط9، سنة 2009 ص36.

³ مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة الدكتور بسام بركة، وأحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1،

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

الأعلى الذي يسقط، وفي كلتا الحالتين فنحن نستبدل دون أن ندري مشكلة الأشخاص بمشكلة الأفكار¹، إن أصل الأزمة الحضارية يكمن في بعدها الثقافي والتربوي الذي ساهم في تشكيل إنسان عصر التراجع الحضاري، في ظل نظام تربوي هيمنت عليه رؤية قاصرة في التعامل مع الواقع ومشكلاته ومستجداته، وفي التعامل مع الماضي بموروثاته الفكرية والاجتماعية السلبية والتي ألفت بظلالها على الجوانب السياسية والامتاعية والأخلاقية بالضرورة،

- **على الصعيد الفكري:** حيث يشهد عالم الأفكار في عالمنا العربي والإسلامي اضطراباً يتمثل في عدم ادراك قيمة الفكرة بحيث يمثل الجانب الفكري أساس المشكلة التي، نحن بصدها، فالأفكار في المجتمع الإسلامي لا تتمتع بقيمتها التي تجعلنا ننظر إليها بصفتها أسمى المقومات الاجتماعي، وقوة أساسية تنظم وتوجه قوى التاريخ كلها وتعصمها بذلك من محاولات الإحباط مهما كان نوعها، وهذه الثغرة تعود في تكوينها على التخلف الاجتماعي الذي نعاني منه في مجتمعاتنا، وبناء على هذا الاعتقاد المعرفي، يمكن إعادة تعريف المجتمع المتخلف بالتركيز على معيارية "عالم الأفكار وقيمة الفكرة" عوضاً من التركيز على مناهج أخرى تقاس بالمادية والوسائل والآلات فالتخلف هنا ما هو إلا افتقار للأفكار .

ب- التربية كمشكلة: يرى مالك بن نبي أن مشكلتنا ليست في تغيير الأنظمة السياسية السائدة ولا في انتهاج نظام اقتصادي معين، إنما أصل المشكلة هو "تغيير الإنسان الذي تحللت تركيبته الإنسانية، فتحللت معه الحياة" بعدما أكمل دورته الحضارية لأنه لم يتعامل حسب مالك بن نبي، مع وهر المشكلة وحقيقتها وإنما مع أعراضها ومظاهرها بحكم أن الإنسان هو الذي أنتج مثل هذه المؤسسات الفاشلة العاجزة عن أداء مهامها الاجتماعية هذا الإنسان الذي يتواجد في هيئة الباشا، أو عالماً مزيفاً، أو مثقفاً مزيفاً أو متسولاً، يحمل في كيانه جميع الجرائم التي سينتج عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين"، ومن أجل توضيح هذه الفكرة تعرض بالتحليل لمختلف مظاهر التخلف التي تدلّ على تمادي هذا النموذج التربوي الرديئ في حياة المسلمين وكدلالة على تمادي المشكلة إلى اليوم على الرغم من مضي عدة عقود على جلاء الاستعمار من العالم الإسلامي ما ورد في كتاب وجهة العالم الإسلامي إذ يقول: "فالنقائص التي تعانيها النهضة الآن، يعود وزرها إلى

¹ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

ذلك الرجل الذي لم يكن في طبيعة التاريخ، فنحن ندين له بمواريتنا الاجتماعية وبطرائقنا التقليدية التي جرينا عليها في نشاطنا الاجتماعي... لم يكف بأن بلغنا نفسه المريضة التي تخلقت في جو يشيع فيه الإفلاس الخلقى و الاجتماعى والفلسفى والسياسى، فبلغنا ذاته¹، ويعترف مالك بن نبي أنّ المشكلة التربوية ليست أبداً بالسهلة كما يظن البعض فلا تكمن في إيقاض ذلك الصبي صباحاً ولا حشو محفظته بالكتب، وإنّما المشكلة تتطلب جهداً استثنائياً لأنّ إعداد الإنسان للدخول في الحضارة صعب وبكثير من صنع محرّك أو بناء قصر، فالعلوم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية تعد اليوم من أكثر العلوم ضرورة لأنّ أعداد هذا الإنسان اثنى كثيراً من ترويض قرد على استخدام رباط العنق.

إنّ مالك بن نبي يعتقد أنّ نقطة الإنطلاق لإستئناف دورة حضارية إسلامية جديدة تكمن في استئصال الأورام النفسية والاجتماعية السلبية التي أسقطت المجتمع المسلم منذ ستة قرون وتجديد كيان الإنسان المسلم طبقاً للتعاليم الإسلامية الحقّة ومناهج العلم الحديثة².

ت) التربية كوسيلة فعالة لتغيير الإنسان³: لقد قام مالك بن نبي بصياغة مفهوم التربية على أنّه مشروع متكامل لتحضّر الإنسان وتأهيله للمساهمة في بناء المجتمع التاريخى المتحضّر، بحيث تضمن هذا التعريف الموضوع والأداة والهدف والوجهة النهائية للمشروع حيث نجده يقول: "ليست التربية مجموعة من القواعد والمفاهيم النظرية التي لاسلطان لها على الواقع، على عالم الأشخاص، وعالم الأفكار وعالم الأشياء، وليست هي من إنتاج المتعالمين وبحار العلوم الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم دون أن يلموا بما تترجم عنه هذه الكلمات من وقائع، بل هي وسيلة فعالة لتغيير الإنسان، وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شروط الوجود نحو الأحسن دائماً، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدّي نشاطه المشترك في التاريخ.

¹ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامى، مرجع سابق، ص36.

² المرجع نفسه، ص38.

³ فائزة بوتلجة: مالك بن نبي وفلسفة البناء الحضارى بالبعد التربوى، أطروحة مقدمة للترشح لشهادة دكتوراه علوم في الفلسفة تخصص فلسفة عربية اسلامية، جامعة الجزائر، أبو القاسم سعد الله، 2019، ص258.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

ث) التربية كعملية منهجية هادفة وعملية استيعاب للقيم الثقافية:¹ نظر مالك بن نبي إلى التربية على أنها عملية منهجية هادفة موضوعها وأداتها وهدفها، وقد استطاع بذلك أن يعدد الزوايا التي تناول من خلالها موضوع عملية التربية والتي تتمثل في كونها كل واقع اجتماعي إنما هو في أصله انعكاس لمنظومة من القيم الثقافية التي تشكل بمجموعها النموذج التربوي المنشود لكل من الفرد والمجتمع، يجب على المجتمع في نظر ابن نبي أن يؤدي نشاطه في التاريخ وذلك بتوحيد شبكة العلاقات الاجتماعية التي تولّف عناصره المختلفة الزمنية والنفسية لأنّ كل علاقة هي في جوهرها تحمل قيما ثقافية يمثلها القانون الخلقى والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع، وبناء على ذلك عرف بن نبي التربية على أنها عملية تمثل العناصر الثقافية التي يمتصها الفرد من الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه.

* الجوانب المستهدفة في العملية التربوية عند بن نبي :

أ- التربية الأيديولوجية (المفهومية):

والمقصود بالأيديولوجية أو التربية المفهومية والمنظومة الفكرية هو: " مجموعة الأفكار والمفاهيم التي تنتشر في ثقافة ما وتشكل إطارها المرجعي²، وتتعلّق بالإيديولوجيا أو المفهومية بالمنظومة الفكرية المؤطرة للمجتمع³، حيث تحدّد طبيعة علاقة الأفكار التي يحملها الإنسان بالمعتقد الديني والذي اعتبره مالك بن نبي " ظاهرة كونية تتحكم في فكر الإنسان وحضارته كما تتحكم الجاذبية المادة وتتحكم في تطورها"⁴، وعليه فإنّ الفكرة الدينية تنظم سلوك الإنسان وتقوي العلاقات الاجتماعية وعلى هذا يصف مالك بن نبي العنصر الديني بوصفه " عامل

¹ المرجع نفسه، ص 259.

² حسن صعب: الإنسان هو الرأسمال، مقال منشور بمجلة عالم الأفكار، مجلد 2، العدد 4، وزارة الاعلام، الطكوبت، 1978، ص 28.

³ محمد سيلا، الإيديولوجيا نحو نظرة متكاملة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992، ص 14.

⁴ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 1987، ص 300.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

تنظيم نفسي فضلا على أنه يغذي الجذور النفسية العامة ، يتدخل مباشرة في الشخصية التي تكون الأنا الواعية في الفرد، في تنظيم الطاقة الحيوية التي تصفها الغرائز في خدمة الأنا¹.

وعليه فإنّ التربية الإيديولوجية أو المفهومية تختص بالجانب الفكري (المفاهيمي) لدى الإنسان في تطوير فكره وتكوين وعيه النوعي، يعتبر، أساس في بناء الإنسان لا يمكن إهماله وتجاهله " فالوعي بالذات كذات مغايرة لها خصوصياتها الثقافية والحضارية"، ومنه يمكن القول أن وظيفة التربية الإيديولوجية تقوم بوظيفتين: وظيفة تنبئية تنبه الذات بسلبيتها بهويتها وبإمكانياتها المادية والمعنوية، وتنبهها بالخطر الذي يهدد وجودها كذات قائمة، ووظيفة تحريضية ، تحرض الذات على اختيار التغيير الإداري كبديل لا نقاش فيه، لأوضاعنا السيئة بغية دفع المخاطر المحدقة بمصيرها².

فالتربية الإيديولوجية أو المفهومية تعدّ أساسا في بناء إنسان تربوي يفى أحداث فراغ فكري فيصرح مالك بن نبي قائلا " كل فراغ إيديولوجي لا تشغله أفكارنا، ينتظر أفكارا منافية لنا"³.

ب- التربية الأخلاقية :

وتهدف الى تشكيل وبناء "عالم الأشخاص" الذي يتسنى من خلاله تشكيل "عالم الأفكار" و"عالم الأشياء" وهذا عن طريق عمليات الترويض والتهديب والتوجيه ، وهذا منهج النبي محمد صلى الله عليه وسلم عندما قال " انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وإن أخطر مرض أصاب امسلمين هو الإنفصام بين النموذج القرآني والتطبيق العملي، فقد انعدمت الدوافع الآلية التي حركت الرعيل الأول من الصحابة وبلخصها قول الفرزدق الشاعر للحسين بن علي رضي الله عنه واصفا أهل العراق: " قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية" وبدأ ضمير المسلم يتهرب من الحقائق المنزلة وحركة الخوارج والمعتزلة مثال على ذلك، ولكن هذا المرض إزداد تقشي في مجتمع ما بعد الموحدين فأصبح المسلم نتيجة لغروره لا يحاسب نفسه، ولا يعترف بأخطائه، وأصبحت المعادلة بما أن الإسلام دين كامل وبما أنه مسلم، فالنتيجة أنه كامل" وبذلك اختلت

¹ عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة، نحو نظرية تربوية جديدة للعالم الإسلامي المعاصر ،شركة الأصالة للنشر، الجزائر، ط3، ص70.

² محمد بغداددي ، باي، التربية والحضارة، مرجع سابق، ص149-150.

³ مالك بن نبي ، انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الرشاد، بيروت، ط1، 1969، ص45.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

أي حركة عنده لزيادة الجهد والتقدم، ونتيجة لهذا الخلل ضعفت الروابط الاجتماعية فعالم الأشخاص لا يتألف ضمن منهج تربوي، يهتم بالأخلاق، وهذا التألف مهم جدا، قال تعالى ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما آلفت بين قلوبهم ولكن الله آلف بينهم﴾¹ (سورة الأنفال). ومبدأ المؤاخاة الذي قام بين المهاجرين والأنصار أصبح من الخطابات السعيدة، والأخوة الإسلامية أصبحت كلاما للزينة وشعور تحجر في نطاق الأدبيات، وهذا الضعف يقصد به المجتمع ككل ولا يقصد به كل فرد، فلا يزال في الأمة "كأفراد" خير كثير، ولا يزال الناس في الريف أقرب للفطرة².

ت- التربية الجمالية :

و هي التي تهدف إلى تشكيل الذوق العام وتجميل النفس والمحيط، وذلك بجعل النفس تستهجن وتتفر من كل قبيح في الأقوال والأفعال والمناظر والأشكال والأصوات والروائح وغيرها، وبالمقابل تستحسن الجميل وتسعى في طلبه، ولقد أكد ديننا الحنيف على هذا النوع من التربية فيقول الله تعالى في القرآن... (خذوا زينتكم عند كل مسجد)... ويقول صلى الله عليه وسلم " إن الله جميل يحب الجمال "... ويقول " نظفوا أفئنتكم ولا تشبهوا باليهود". فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الانسان في نفسه نزوعا الى الاحسان في العمل وتوخيا للكرام من العادات، ولا شك أن للجمال أهمية اجتماعية كبيرة، إذا ما عدناه المنبع الذي تصدر عنه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع³.

ث- التربية الإنمائية :

أما التربية النمائية فهي التي أشار إليها الأستاذ محمد العبدية من خلال تركيزه على خليلين سماهما:

1- ذهان السهولة "مرض السهولة": يميل المسلم في تقويمه للأشياء إما للغلو فيها أو للحط من قيمتها، ويتمثل هذا في نوعين من الأمراض: فإما أن الأمور سهلة جدا ولا تحتاج إلى تعب وكد فكر، والحل بسيط، وإما أن الأمور مستحيلة، وأبرز مثال على مرض قضية فلسطين، فقد قيل: إن إخراج اليهود سيتحقق بعد أشهر، ولو نفخنا عليهم نفخة واحدة لطاروا، ولكنهم في

¹ سورة الأنفال، الآية 8.

² محمد العبدية: قراءة في فكر مالك بن نبي، 2، مشكلة الحضارة، 2014، على الرابط www.devalicom.net.

³ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، 1984، ط4، دار الفكر بيروت، ص82.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

الحقيقة لم يطيروا، وهناك من يظن أنه بخطبة رنانة تحل مشاكل المسلمين، وبعضهم يكره أن تدعوه إلى تفكير عميق في موضوع ما من الموضوعات لأنه يؤثر السهولة ويكتفي بتفسير سطحي، وعندما تخطط السياسة طبقاً لمبدأ السهولة فإنها سوف تجتذب إلى تيارها كثيراً من الناس ذوي النوايا الطيبة، ممن يقدرّون الأشياء بناء على سهولات الحاضر لا على صعوبات المستقبل¹.

وأيسر طريق لأصحاب السياسات الانتهازية أن يستخدموا كلمات مثل: الاستعمار والإمبريالية والوطنية للتغريب بالشعوب هذه الكلمات التي تليق جداً لتشحيم المنحدر حتى يكون الانزلاق عليه نحو السهولة ميسوراً جداً.

2- ذهان الاستحالة : وقد يحدث العكس، فيرى المسلم أن الأمور مستحيلة ويقف أمامها عاجزاً وهي في الحقيقة غير مستحيلة ولكن ربما يضخمها عمداً حتى لا يتعب نفسه في الحل، أو أنه يشعر بضالة نفسه وصغر همته فيحكم عليها بالاستحالة، وفي فترة كانت بعض الشعوب تنتظر إلى صعوبة إخراج المستعمر، فالمسلم في هذه الحالة يواجه عقدة نفسية، وقد ساهم مالك بن نبي في تخليصه من هذه العقدة التي تجعل المرء يعزو تأخر حركة النهضة والنمو في مجتمعاتنا العربية إلى صعوبات وإلى طبيعة هذه المشكلات التي تواجه هذا التطور والنمو، عوضاً أن يعزوها إلى نفسه من الناحية العقلية في ادراكه لهذه المشكلات، ومن الناحية الأخلاقية في سلوكه إزاءه².

ج- التربية المدنية:

وهي التي ترمي إلى تكوين الحس المدني في المجتمع وخلق الشعور الديمقراطي لدى أفرادهِ وتجسيده في سلوكياتهم وهذا من خلال تعليم هؤلاء الأفراد فن العيش المشترك القائم على الاحترام المتبادل وفقاً للمنهج النبوي القائم على التكافل الاجتماعي والمشار إليه في قوله صلى الله عليه وسلم (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) وهذا التوجه التربوي أكد عليه القرآن في أكثر من موضع، كقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا

¹ محمّد العبدّة، مرجع سابق.

² مالك بن نبي: مشكلة الحضارة، تأملات، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر دمشق، سورية، 2002، ص 11.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

على الإثم والعدوان) ... ولقد ضرب المسلمون عبر التاريخ أروع الأمثلة في الجانب السلوكي التطبيقي

كالإيثار، والعفو عند المقدرة ... و ذلك كله من مخرجات التربية المدنية التي أكد عليها مالك بن نبي.

د- التربية الفنية والمهنية:

يرى بن نبي أن الحرفة والصناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه وبناء مجده، وهي بالنسبة للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه، لذلك يجب مراعاة هذين الاعتبارين في كل فن، ويحث مالك بن نبي الى ضرورة إنشاء مجلس للتوجيه الفني ليحل نظريا وعمليا مشكلة التربية المهنية تبعا لحاجات البلاد ، وهو يرى بأن تعلم العلم في المدارس الرسمية وغير الرسمية، أو الاعتماد على وعود الساسة أمر مخيب للأمال ولا يفي بالغرض من تحقيق الحاجات الفردية أو المجتمعية للأمة، ويرى أن الحل الوحيد منوط بتكوين الفرد تكوينا صحيحا يقوم على التجربة العملية¹.

ج) التربية الاجتماعية:

لا يمكن الانتقال إلى مجتمع الحضارة أو تظهر فاعلية الأفكار، دون بناء شبكة علاقات اجتماعية متماسكة في المجتمع، فإذا كانت الحضارة عملا متجانسا من بين عوالم: الأشخاص والأفكار والأشياء فإنه لا يمكن تصور هذا التجانس دون وجود شبكة من العلاقات الضرورية التي تعدّ معيارا لقوة العمل ورمزا لعمق تأثيره، والتربية الاجتماعية في نموذج مالك بن نبي هي العمل الأول الذي ينبغي أن يقوم به المجتمع في طريق التغيير الحضاري، وهي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده، وكمثال على ذلك شبكة العلاقات الاجتماعية التي ظهرت بين المهاجرين والأنصار في المجتمع الإسلامي التاريخي الأول .
وتسعى التربية الاجتماعية في هذا النموذج إلى تحويل الإنسان من كونه فردا، إلى أن يصبح شخصا، وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه

¹ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق، الطبعة الرابعة ، 1984 دار الفكر، بيروت، ص88.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

بالمجتمع، وكذا تحقيق الانسجام والتآلف والتآزر بين الأشخاص المكونين لشبكة العلاقات الاجتماعية، والذين يؤدون نشاطا مشتركا في المجتمع¹.

وبالإضافة إلى كل هذه الجوانب المستهدفة (التربية الإيديولوجية، التربية الأخلاقية التربية الجمالية، التربية المدنية، والتربية الإنمائية، التربية الفنية و المهنية) نجد التعليم، هو اللبنة الأساسية لأنه وسيلة من وسائل التمكين في الأرض، فيه تتفوق الشعوب المتحضرة وبه تقود العالم ونستطيع اللحاق بركب الحضارة ومسيارتها، حيث نلاحظ أول كلمة نزلت في القرآن " إقرأ" من سورة العلق، فإن أول ما طلب من الناس أجمع هو العلم، قبل العبادة وغيرها من الأشياء، وفي كتابه تعالى يقول ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾²، وفي كتابه العزيز يقول عز وجل ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾³، ولهذا نجد مالك بن نبي يحث كثيرا على تعليم الإنسان والذي يعتبر هو أساس بناء هذه الأمة، ومن مظاهر التمكين التي يقدمها العلم حسب مالك " إنَّ نظام العالم المعاصر العلمي والتكنولوجي الذي قامت منظومته الفكرية والثقافية على المنهج الرياضي والتجريبي حصل على قدرات إجرائية هائلة زودته من مظاهر التمكين والتنبؤ والتحكّم والتصرّف فالتنبؤ يجعل الإنسان ينم معرفة جيّدة بالقوانين التي تتحكم في الظواهر"⁴.

¹ فازية بوتلجة: مالك بن نبي وفلسفة البناء الحضاري بالبعد التربوي، مرجع سابق، ص275.

² سورة العلق، الآية05.

³ سورة الزمر، الآية09.

⁴ عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير، في فكر مالك بن نبي (عالم الأفكار)، ط2، 2007ص52

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

المبحث الثالث: رؤية نقدية لمشروع مالك بن نبي الحضاري

لقد تعرّض مالك بن نبي كغيره من المفكرين إلى إنتقادات عديدة من قبل النقاد والباحثين وسنحاول في مبحثنا هذا التطرق إليه.

من بين الانتقادات التي مست فكر بن نبي نذكر:

- **ضعف ثقافته الشرعية:** باعتبار أنّ مالك بن نبي لم يتصل بعلماء عصره ليستفيد منهم ورغم اعترافه بأهمية جمعية العلماء المسلمين في الجزائر، إلا أنّ علاقته بها كانت فاترة، ويعترف هو بأنّه كان مخطئاً في هذا، وكانت دراسته للإسلام نابعة من قراءاته الشخصية قليلة إذا ماقيست بقراءاته للفكر الغربي، وهذا ما جعله يخطأ في أمور كثيرة، سواء كانت في الفقه أو الأحكام، أو في النظرة لبعض جوانب التاريخ الإسلامي، فمن رموز الثقافة عنده الفرابي، وابن سينا وابن رشد، والمجتمع في عصر الفرابي كان يخلق أفكاراً، وفي عهد ابن رشد يبلغها إلى أوروبا، وبعد ابن خلدون لم يعد قادراً على الخلق ولا على التبليغ، وفي العصر الحديث من رموز الثقافة عنده، جمال الدين الأفغاني، كما أنّه كان معجب بالهند وعلى أساس عدم وضوح توحيد الألوهية ظنّ أنّه من الممكن اتصال العالم الإسلامي بروحاني الهند مع أنّها لا تطبق شرع الله¹.
النظرة السطحية للأحداث: كان مالك بن نبي عميقاً في فهم غور الاستعمار وأساليبه الخفية وعميقاً في معالجته القبلية للاستعمار عند المسلمين، ولكن في عالم الواقع والسياسة فيه سذاجة، فإنّه لم يدخل بنظم إلى عالم السياسة.

الفكر الإصلاحية عند مالك بن نبي: الفكر الإصلاحي عند مالك بن نبي، في نظر الباحثين تبريري وترميمي، ويعد البعض أنّ نتائج الفكر الإصلاحي عند بن نبي من الأخطاء الفكرية التي وقع فيها، وأمّا إعطائه للتراب قيمة قد لا تحقق حضارة، فالحضارة الغربية تستغلّ التراب أحسن استغلال، وتستثمر الوقت أحسن استثمار لكنّها أوجد أضراراً ومهالكاً للإنسان لم تشهدّها البشرية من قبل، فالتراب والوقن لا ينتج بالضرورة حضارة، بل قد ينت دماراً وخراباً كما قد وقع مالك بن نبي فيما وقع فيه ابن خلدون، حيث استخلص قوانين من واقع وتاريخ العرب والمسلمين وراح يعممها على كافة الشعوب، والقرارات التاريخية، ويظهر تأثره بآبن

¹ محمد العبد، قراءة في فكر مالك بن نبي، متاح على الأنترنت.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

خلدون في تحديد لأعمار الحضارة، وأطوارها فهو لم يفعل شيئاً، وإنما استبدل كلمة الدولة في الفكر الخلدوني بالحضارة في نظريته¹.

يعترف الدكتور قلاتي البشير، في كتابه " مابعد مالك بن نبي أن فكر ابن نبي وطريقة تناوله للأفكار ومنهجه في تحليل أزمة الانحطاط الحضاري للعالم الإسلامي، والمفاهيمية العقلية البنابية (نسبة لابن نبي) لها جدل خاص، فالرجل ذو عقل علمي، وله منهج تحليل منطقي فائق الانسجام والدقة، حتى كأن أفكاره أفكار رياضية (من الرياضيات) "إلا أن حالة الضغط الحضاري الذي نعيشه اليوم، يحتم علينا إعادة التفكير في مثل هذه المشاريع الفكرية فكل عقل زمانه، الذي تحرك فيه، وعلى ضوء وقائعه، التي أضحت ماضياً، نستفيد منه بقدر ما نعمل على تجاوزه، لتجدد التحديات وتزايد خطورتها"²، ويقول الدكتور "قلاتي": "في قراءتي الأولى، كنت أتوافق مع فكر ابن نبي حول ظاهرة القابلية للاستعمار، وفي نقده الشديد لمحمد إقبال، وفي مقارنته لطرح سيد قطب حول المجتمع الإسلامي المتحضر، وفي بعض طروحاته الفكرية، لكنني بعد أن وضعت مسافة بيني وبينه، راجعت هذه الأفكار، فوجدت أنها غير متوافقة مع بعض المعطيات الواقعية، مما يفقدها بعض مسوغاتها، ومنها بعض المفاهيم التي تؤول إلى نتائج نفسية صحيحة في ذاتها، ولكن لم تعد صالحة، لاعتبار اختلاف الزمان والمكان والتحديات، خاصة في مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين"³، ويضيف: "إن أولى واجبات المثقف اليوم أن يفكر بعقلية نقدية لا اجترارية... ولا يعني ذلك إصدار أحكام اعتباطية معيارية.. إن كل معرفة موضوعية ينبغي أن تزوج بين مستويين من التحليل باعتباره استكشافاً للموضوع باستراتيجيات معرفية أكثر ثراءً و متانة. وليس النقد مصارعة أيديولوجية.. النقد تطبيق للمنهج السالب لبيان أننا لا نعرف الكثير عما نعتقد أننا نعرفه تمام المعرفة، والاستكشاف بيان شبكة مفهومية ومنهجية تتيح معرفة الشيء من زوايا ومستويات أكثر عمقا"⁴.

ومن مؤاخذات الدكتور قلاتي: "ما لاحظته أن كل ما كتب عن الرجل، تتناوله في إطار

¹ مالك بن نبي، الصراع الفكري، مرجع سابق، ص22.

² د. قلاتي البشير: مابعد مالك بن نبي، " نحو تجديد الخطاب الحضاري في مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرون"، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، 2019، ص18.

³ المرجع نفسه، ص19.

⁴ المرجع نفسه، ص21.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

نظري، إما من جهة النقل والاجترار دون تمحيص أو نقد، وإما من جانب التمجيد والإشادة... أردت في هذه الدراسة أن أكون موضوعيا قدر الإمكان. أتناول الفكر الحضاري عند مالك بن نبي الذي نعتف بعبقريته من خارجه من خلال إطار نقدي، محاولا أن أتجنب جميع أشكال التحيزات... فكرة المابعد التي يعلن فيها العقل أنه أن لنا أن نفكر لعصرنا، أن نحرك عقولنا خارج صندوق الطروحات القديمة التي تكلست عليها كأنها من الوحي المعصوم. دون أن يمنعنا ذلك من الاستفادة منها والبناء عليها والتأسيس على قواعده، يمكن أن تثبت صلاحيتها لمواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين، حيث الأمم تخطط منهجيا لمشاريع تبنى على رؤية مستقبلية تمتد في عمق الزمان، بينما مازلنا نجتر طروحات الماضي دون أن نملك شجاعة نقدها"¹.

إن مالك بن نبي نفسه بحسب "البشير قلاتي" "لو قدر له أن يعيش هذا العصر ويعاين تحدياته على المستويين الداخلي والخارجي، لعدل الكثير من أفكاره ولأعلن معارضته لكل ما حوته تلك الدراسات التمجيدية التي تمتلئ بها رفوف المكتبات عندنا".

نقد المشروع الحضاري عند مالك بن نبي :

يرى الدكتور قلاتي "أن تاريخ الحضارة عند مالك بن نبي يتمثل في دورات، كل دورة محددة بشروط نفسية واجتماعية (تبعثها فكرة دينية أو عقيدة) فهي حضارة بهذه الشروط. تنتقل هذه الشروط من مجتمع إلى آخر في هجرة لا نهاية لها، مثلها مثل الشمس تشرق في أفق شعب ثم تتحول إلى افق شعب آخر، ويجب على الأمة أن تعي مكانها ضمن دورة التاريخ وتدریس عوامل انحطاطها ومشاكلها التاريخية وإمكاناتها، ثم تستخلص الحلول والمناهج وفقا لذلك بعيدا عن التقليد. وهو أمر لازم لكل مشروع نهضة، فالحركة التاريخية تجعل كل حضارة تقع بين حدين: ميلاد وأفول والمرحلة بينهما هي مرحلة الانتشار والتوسع، وهو قانون عام ينطبق على الحضارة الإسلامية كما ينطبق على بقية الحضارات، وقد مرت بهذه المراحل حسب طابع ثقافة المجتمع وقيمه النفسية والاجتماعية"².

¹ المرجع نفسه، ص25.

² د. قلاتي البشير: مابعد مالك بن نبي، " نحو تجديد الخطاب للحضاري في مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرون"، مرجع سابق، ص66.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

نجد أن مالك بن نبي رحمه الله يتعامل مع التخلف كظاهرة من خلال مفهوم اجتماعي يشير إلى حالة كساد الطاقات الاجتماعية تحدث بسبب تفكك العلاقات الرابطة بين ثلاثية العناصر الأولية للتكوين الحضاري: إنسان، تراب، زمان، من خلال العنصر المحفز الذي هو الدين.

إن ما يقرره مالك بن نبي حول توقف إشعاع العقل بفعل فراغ الروح في المرحلة الغرائزية، يشير إليه ابن خلدون حيث إن ضعف الإبداع يرجع إلى اضطراب العمران وانتشار الظلم وقهر الرعية وكبت الحريات، وهي من خصائص مرحلة الهرم. مقابل ذلك، فإن الإبداع العقلي التمديني إنما يزدهر في مرحلة الحضارة، حين تستقر الدولة وينتشر عمرانها وتزدهر المعاش ويامن الناس على أنفسهم وأموالهم¹.

ويستدل أن "هذا ما يؤكد واقع الحضارة الغربية اليوم، بما تعرفه من ازدهار مادي وتقدم عملي وتقني غير مسبوق بفعل التنظيم الدقيق وجو الحرية، رغم كل ما تعانيه مجتمعاتها من فراغ روحي يشنكي منه عقلاؤهم. في نظر أحمد عروة، فإن المراحل الثلاث التي حددها مالك بن نبي رحمه الله: مرحلة الصعود (الروح)، مرحلة الاستقرار والانتشار (العقل)، مرحلة الأفول والهبوط (الغريزة)، لا يمكن التسليم بها كمراحل حدية، إذ لا يمكننا أن نضع دول العالم الإسلامي كله التي تفككت في سياق حضاري واحد، فالحركة الحضارية تختلف حسب لحظات تاريخية مختلفة، فالخط العام للحضارة يصعد ثم ينزل، لكن هناك تطور الامبراطوريات وهو غير تطور الحضارات. كما أن هناك تطورا لحضارات محلية كغرناطة وتلمسان وبجاية، فخط السيرورة التاريخية للحضارة الإسلامية عرف تعرجات كثيرة حسب مراحل، وظروف تاريخية استمرت إلى إسقاط الخلافة العثمانية عام 1924م، ثم تكالب القوى الكبرى على العالم الإسلامي بما يسمى بظاهرة الاستعمار الحديث، وهنا يبدأ الانهيار التام².

وحول مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي يقول البشير قلاتي: "من خلال فكرة مالك بن نبي عن حالة التخلف الحضاري، فإنني أرى عناصر الحضارة تتحول إلى عناصر مفككة فاقدة لقيمتها الحيوية، يمكنني تمثيلها في صورة إنسان تائه في وقت ضائع على تراب بائر.. صورة تراجيديا المجتمع المتخلف، فإذا تاه الإنسان ضاع الوقت وبار التراب، وهو معنى مرتبط

¹ المرجع نفسه، ص 71-72.

² المرجع نفسه، ص 72.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

بالمفهوم الوظيفي البنابي للحضارة، الذي يجمع بين وجهين: الحضارة كمدنية (الجانب المادي التعميري) والحضارة كثقافة (الجانب الخلقى، السلوكي، التربوي والجمالي..) والمسوغ الذي جعل مالك يضع هذا المفهوم هو ملاحظاته حول بعض الظواهر الاجتماعية، حيث إن الفرد الأوروبي يتلقى الدعم اولرعاية والمساندة كافة في مجتمعه، بينما الفرد المسلم (الجزائري) يفقد كل ذلك ببساطة؛ لأن الأول قدر له العيش في مجتمع متحضر، والثاني قدر له العيش في مجتمع متخلف"، لأنّ "التقدم الحقيقي في الحضارة هو التقدم على نوازع الإنسان، ولا يكفي أبدا أن يحقق الإنسان سيادته على الطبيعة ليتجنب حركته تجاه البربرية"¹.

نجد أن مالك بن نبي رحمه الله يتعامل مع التخلف كظاهرة من خلال مفهوم اجتماعي يشير إلى حالة كساد الطاقات الاجتماعية، تحدث بسبب تفكك العلاقات الرابطة بين ثلاثية العناصر الأولية للتكوين الحضاري: إنسان، تراب، زمان، من خلال العنصر المحفز الذي هو الدين أو بالأحرى العقيدة الدينية، وعليه فتحديد التخلف لا يرتبط بالناحية الاقتصادية وحدها كما هو شائع، بل يتعلق بالحضارة بشكل عام.

كان لانتقام الأفكار المطبوعة آثاره حتى على العقل المسلم ذاته فيما يعانيه من أزمة متعددة الجوانب، أرجعها بعض المستشرقين إلى طبيعة العقل الشرقي نفسه، ومن مظاهر هذا الانتقام أنه أصبح أسير السطحية والتسرع في الأحكام حتى أضحي عاجزا عن إدراك حقيقة الظواهر، فغفل عن أبعاد آيات القرآن وأحاديث السنة، فاكتفى باستظهارها شكليا دون معرفة وفهم محتواها.. ولما اصطدم بحضارة الغرب انشغل بمعرفة طرق الحصول على أشياءها دون أن يكلف نفسه البحث في كيفية إبداعها، مما أثر في نفسية المسلم فأضحى هائما يلهث وراء اقتناء وتكديس هذه الأشياء، ظنا منه أنه يبني بذلك حضارة من خلال استيراد أشياءها التي أبدعت عقولا أخرى وغفل عن حقيقة بديهية، وهي أن الحضارة لا تتبع له روحها وإن باعت أشياءها، لأن الحضارة أخيرا بناء ثقافي وليست تكديسا.. وبذلك اختلط على العقل المسلم الجوهر بالشكل، حتى أضحي العلم نفسه أسير الشكليات ونيل الألقاب والشهادات ووسيلة

¹ د. قلاتي البشير: مابعد مالك بن نبي، " نحو تجديد الخطاب الحضاري في مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرون"، مرجع سابق، ص81-82.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

للتباهي والنفخ الفارغ وترديد ما يقوله الآخرون، وأضحى العقل عندنا أسير السلبية والعجز والتبطل¹.

وختاماً لا بد من الإشارة إلى جملة من الملاحظات التي تتعلق بفكر مالك بن نبي:

أولاً : على الرغم من اهتمام بن نبي بقضايا الحضارة ومشكلاتها فإن ذلك لم يجعله ينحو بتحليلاته منحى التجريد والنظر البعيدين عن هموم الأمة الإسلامية وقضاياها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية؛ بل ظل على الدوام ملتصقا بواقع الأمة، وراصدا لمختلف التحولات التي تطرأ عليها.

ثانياً : تتبّع مالك بن نبي لواقع الأمة الإسلامية ورصده لمختلف ظواهره لم يجعل فكره يتيه في طلب حلول جزئية أو ترقيعية لمعالجة هذا الواقع؛ بل نفذ ببصيرته ليكشف الخيوط الرابطة لتلك الظواهر، وليضع الحلول المناسبة لمشكلات الأمة، على شكل معادلات رياضية وقوانين دقيقة².

ثالثاً : إن أهمية فكر مالك بن نبي وسمو اجتهاداته لم تقابلها بعض الدراسات والبحوث القادرة على النفاذ إلى مقاصدها، وهذا ما يدعو إلى ضرورة بذل المزيد من العناية بهذا الفكر، وذلك بالآتي:

- إعادة نشر كثير من مؤلفاته والتعريف بها ومدارستها بعمق.
- وضع مفاتيح منهجية لتتبع اجتهادات هذا المفكر في مختلف المجالات، وتعميق النظر في "المفردات" و"المفاهيم" و"المعادلات" و"القوانين" التي أبدعها بقصد استيعابها والبناء عليها وتوظيفها لتحليل وتوليد الحلول المناسبة لكثير من المشكلات الحضارية المستجدة في واقع الأمة³.

¹ المرجع نفسه، ص 86.

² د. قلتي البشير: مابعد مالك بن نبي، " نحو تجديد الخطاب الحضاري في مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرون"، مرجع سابق، ص 87.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الثالث: المعرفة والتربية في مشروع مالك بن نبي

خلاصة:

الخطأ حالة إنسانية طبيعية، تدل على السعي نحو فهم أفضل بمنهج غير دقيق، ولكن ما هو غير طبيعي أن ندافع عن الخطأ، ونتمسك به.

هذا جوهر الكارثة الحضارية التي شنت الأمة عن النهضة والتقدم، لم نبحث في مصادر حضارتنا عن منهج يعيد تكوين الأمة من جديد، ويعينها على النهضة من كبوتها، ولم نستفد من تارب الأمم الأخرى التي نهضت من غبار دمارها.

وصفوة القول أن "مالك بن نبي" قدم مشروعاً لاستعادة كينونة الأمة الإسلامية، مستخدماً القرآن الكريم كمشعل لإضاءة درب النهضة، مستعيناً بالعقل بحثاً عن المعرفة وكنوز القوة، ومن الرؤية القرآنية انطلق في التعامل مع الحضارات الإنسانية وخبراتها في النهضة ومن وجع التخلف والسكون الحضاري صنع أدوية الصحة الحضارية رغم تعرضه كغيره من المفكرين لبعض الانتقادات.

خاتمة عامة

خاتمة:

نستنتج مما سبق أنّ الإنسان في كل عصر هو مفتاح التقدم أو التخلف، ولذلك يتجه الاهتمام صوب الارتقاء بقدرات الإنسان وتطوير مستوى أدائه حتى يصبح أكثر كفاءة في التخطيط والتنفيذ وأقدر على تحقيق تطلعات المجتمع إلى التقدم والرقي، لذا أصبح هو القوة الوحيدة التي إذا استثمرت أفضل استثمار تصبح هي الآلية القادرة على صنع الحضارة والتنمية المتواصلة في ظل عصر حافل من التحديات.

وأنّ الحديث عن إستراتيجية الحضارة وبناءها بالنسبة لمالك بن نبي مرتبط بالإنسان بالدرجة الأولى ومتعلق تماما بمدى تأثيره في الأمة، ثم بعد ذلك كيفية استثمارها وفعاليتها للمعطي الحضاري، فالعاملية والكونية لم تظلم أحد من الأمم بتاتا، والأمة التي تعيش خارج السرب لم يكتب لها أن تكون كذلك، إلا لأنها رضيت لنفسها العيش في السفوح، والبقاء في المنازل الهاوية، والمراتب الدنيئة، وكل امة تبغي التحضر لا يجب أن تطلبه بل يجب أن تأخذه لأن القضاء والقدر على مدى الانتصار الحضاري والفكري والثقافي، ضمن الضوابط العالقة الاجتماعية والتاريخية التي تقتضي الابتعاد عن الانتكاسية ودخول الفاعلية والنشاط، من خلال استثمار وتوجيه الحياة الثقافية بمبادئها الثالث

(الأخلاقي - الفن الجمالي - العمل الصناعي) وهذا لا يكون إلا من خلال فهم آليات التراب واستغلاله وانبعاث الحيوية من جديد، في مقابل ذلك التعامل مع الوقت باعتباره إطار وجب العيش فيه لأن العيش في التاريخ يقتضي العيش في الزمن، وكل أمة لا تحترم عنصر الوقت لا يمكن أن تكون أمة حضارية.

إذ لا يمكن لأي شعب أن يفهم مشكلته النهضويّة ما لم يتعمّق في فهم العوامل التي

تبنى الحضارات أو تهدمها، فالحضارات المعاصرة والماضية والقادمة عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن، فهي حلقات لسلسلة واحدة منذ أن هبط آدم على الأرض إلى آخر وريث له فيها، ومن ثمّ فإنّ أهمّ ما يمكننا الختم به من آراء ابن نبيّ في الحضارة كونها مفهوماً مركّباً أنها في فحواها انسجامٌ لجهود الإنسانية مع السنن الإلهية في

التّهوض المادّي والمعنويّ في شتّى المجالات الإنسانيّة والعلميّة والدينيّة، فالغاية من ذلك التقدّم والارتقاء بالإنسان إلى أفضل أشكال الحياة الممكنة، إلّا أنّ عمليّة بناء الحضارة تستدعي أسسًا يحصرها ابن نبي في عالمي الأشخاص والأشياء إضافةً إلى حاجتها لمحرّك يعطي العمليّة البنائيّة قوتها واستمرارها، وهو ما حدّده بـ "الفكرة الدينيّة" المنتمية بضرورة الحال إلى عالم الأفكار، مشيرًا إلى أنّ ذلك لا يتمّ إلّا بتسيق شاملٍ يهدف لتغيير الإنسان من الداخل وفق شروط معيّنة، تُمكنه من أداء وظيفته الاجتماعيّة وبناء المجتمع المتحضّر، واختلال هذه الشروط عند ابن نبي سيؤدّي لطغيان هذه العناصر بعضها على بعض، وانزواء الأفكار المحرّكة للحضارة مقابلها؛ مما يُنذر بأفول شمسها واستفحال التبعيّة الفكرية والاستهلاكيّة وأمراض عديدةٍ في جسد المجتمع وفكره.

- إختبار الفرضيات:

- ✓ تتمحور الفرضية الأولى حول مالك بن نبي كونه واحدا من أعلام التّهضة الإسلاميّة، ومن أبرز المفكر العرب المعاصرين ، عني بالفكر الحضاري منذ "ابن خلدون" وهذه الفرضية محققة في بحثنا هذا.
- ✓ أما الفرضية الثانية فتتمحور حول: إ الفكر اليوناني وتمجيده للإنسان، واعتقاده فيه اعتقادا عظيما، باعتبار أن الإنسان هو أفضل موجود، وهذا ما يفسر ارتباط الآلهة بصفات بشريّة، بل ذهب اليونان إلى أن الإنسان حلّ في الإله بحيث ملئ الآلهة بالبشرية وخصائصها وبحثنا حقق هذه الفرضية.
- ✓ الفرضية الثالثة: عرّف أرسطو الإنسان على أنّه حيوان عاقل، و ماركس عرفه أنه مخلوق اجتماعي يمكنه أن يتطور فقط في المجتمع، أما وجهة نظره عن الطبيعة البشرية تلخصها عبارته الشهيرة: "كل التاريخ ليس سوى تحول مستمر في الطبيعة البشرية". وهذه الفرضية محققة في دراستنا هذه.
- ✓ الفرضية الرابعة: الإنسان في الفلسفة الإسلاميّة ليس تطورا طبيعيا بفضل تعقيد المادة وارتقائها، ولا هو تطور بيولوجي كما تشير النظرية التطورية، بل خلقه الله تعالى بقضائه

وقدره، ووضع فيه آياته المعجزة، والإنسان بخصائصه المادية والروحية وحدة متكاملة تحمل إمكانية العقل وإمكانية الاختيار، وحرية الإرادة، وهذا ما أثبتته بحثنا.

✓ أما الفرضية الخامسة فمضمونها: أنّ للحضارة في فكر مالك بن نبي ثلاثة عناصر مركبة لها إلا أنّ أهم العناصر على الإطلاق هو الإنسان، وهذه الفرضية مثبتة أيضا.

✓ الفرضية السادسة: وجهة نظر مالك بن نبي فيما يخص مشكلة الثقافة تجلت في أنه لا سبيل لعودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية إلا بعد تخليصها من الحشو أو الانحراف الذي يحدثه عدم فهمها على الوجه الصحيح، وهذا ما أثبتته بحثنا.

✓ الفرضية السابعة: والتي حققها بحثنا وهي : أن المجتمع المتحضر هو المجتمع الذي بلغ عمر الفكرة، وتتمثل هذه الفكرة في جملة عوامل معنوية ومادية تتيح لهذا المجتمع أن يوفر لكل فرد من أفرادها جميع الضمانات والضوابط الاجتماعية اللازمة لمواصل.

✓ الفرضية الثامنة: تعرّض مالك بن للمعرفة من خلال ثلاثة أبعاد أساسية: هي البعد الإبيستمولوجي، البعد الحضاري، والبعد التربوي، وهي فرضية محققة.

✓ الفرضية التاسعة: ابن نبي يرى أن التربية هي تربية للحرية عن طريق الحرية، حتى يتمكن الإنسان المتربي من أن يفهم ويشعر أنه هو نفسه صانع مصيره، عن طريق فسح المجال لأفكاره، لأن تتبلور وتظهر في سلوكياته وتتفاعل مع النسق العام لحركة المجتمع، وهي فرضية أثبتتها بحثنا.

آفاق البحث:

أثناء دراستنا للموضوع وتحليل جوانبه، تبين أنه توجد عدة مواضيع تتطلب دراسة خاصة بل دراسات عديدة لمعالجتها سنطرحها في هذا البحث كآفاق لدراسات مستقبلية وهي كالاتي:

- أبعاد النمو الحضاري في فكر مالك بن نبي.
- مكانة الإنسان في المدارس الفلسفية المعاصرة.
- مقومات الحضارة من منظور قرآني.

- تأثير الأخلاق في مفهومي العدالة والديمقراطية.
- الحضارة الإنسانية بين نمو المرجعيات ورجعية الفكر (حجاب المرأة نموذجا).
- المرجعيات الفكرية ما وراء مالك بن نبي.
- الفلسفة التربوية لدى الإمام الغزالي.

قائمة المراجع

1/ قائمة المراجع والمصادر باللغة العربية:

- القرآن الكريم والسنة النبوية.
- أرسطو ، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ، ترجمة : أحمد لطفي السيد ، درا الكتب المصرية ، القاهرة ، 1924 ، الجزء الأول.
- أرسطو ، في السياسة ، ترجمة وتقديم وتعليق : الأب أوغسطينس برياره البولسي ، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع ، الطبعة الثانية 1980
- اميل برهيه، تاريخ الفلسفة، الجزء الأول: الفلسفة اليونانية ، ترجمة : جورج طرابشي، دار الطليعة، بيروت الطبعة الأولى 1982.
- سعيدوني ناصر الدين: المفكر مالك بن نبي وأسباب كارثة 1967-2003، رؤى مجلة فكرية فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل الإسلامي ، السنة الرابعة، العدد20، مركز الدراسات الحضارية، باريس، فرنسا، 2003.
- عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي ، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 2013، ج1.
- عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة، نحو نظرية تربوية جديدة للعالم الإسلامي المعاصر شركة الأصالة للنشر، الجزائر، ط3.
- فهمي جدعان، نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، دار الشرق، الأردن، ط1، 1998 .
- مالك بن نبي ، أعمال المستشرقين، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 2011.
- مالك بن نبي مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر، سوريا ط9، سنة 2009.
- مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد،، دار الفكر المعاصر، ط3.
- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة الدكتور بسام بركة، وأحمد شعبان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1992.
- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، 1984، ط4، دار الفكر بيروت

- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 1987.
- مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 1991
- مالك بن نبي، تأملات، 1961، شبرا، الخيمة، القليوبية، دار الوطن.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، 1957، ط1 دار الفكر، دمشق، سوريا.
- محمد العبدية: قراءة في فكر مالك بن نبي 2، مشكلة الحضارة، 2014، على الرابط.
www.devalicom.net
- محمد بغدادي، باي، التربية والحضارة، مرجع سابق.
- محمد سعيد رمضان البوطي، الحقوق والحريات المدنية والسياسية في الإسلام ضمن : حقوق الإنسان في الإسلام بين الخصوصية والعالمية، منشورات " Iscisco"، 2001.
- محمد سيلا، الإيديولوجيا نحو نظرة متكاملة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992.
- ميثم الجنابي : مالك بن نبي: فلسفة الفكرة الحضارية، الحوار المتمدن، العدد 5655، 2015/9/30.
- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة" مشكلة الثقافة"، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر، 1984، ط1، دمشق، سوريا.
- ابن منظور: لسان العرب، حرف الحاء، المجلد4، دار صادر، بيروت، ط1، 2003، ص148.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، تونس، 2003.
- إريك فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، ط1998، 1، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق.
- أسامة خضراوي : أطروحة الدكتوراه في الأدب في موضوع: "الحياة الاجتماعية في مرآة الأمثال الشعبية المغربية"، سنة 2014 بجامعة محمد الخامس أكادال - الرباط.
- الأخضر شريط : مشكلة التاريخ في الحركة التاريخية، دار الخليل العلمية الجلفة، طبعة خاصة، 2003.

- الجابري محمد عابد، الديمقراطية وحقوق الإنسان، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان، ط3، 2004.
- الطاهر سعود: التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي " فلسفة الدين والكلام الجيد"، ط1، 2006، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت لبنان.
- الكبار عبد العزيز، قراءة معرفية لمفهوم الثقافة عند مالك بن نبي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير .
- آمنة تشيسكو: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي، وارلوند توبيني، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1989.
- أنور الجندي: " الفكرة والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا"، 1965، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ،
- بشير ضيف الله، " فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي"، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2005
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1978، ص475.
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، 1982 ج1، بيروت، لبنان.
- حسن صعب: الإنسان هو الرأس مال، مقال منشور بمجلة عالم الأفكار ، مجلد 2، العدد 4، وزارة الاعلام، الكويت، 1978.
- د عمر النقيب، دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 2008، 10،
- د مصطفى السباعي: " المسلمون"، العدد 104، المجلد 6.
- د. قلاتي البشير: مابعد مالك بن نبي، " نحو تجديد الخطاب الحضاري في مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرون"، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، 2019.
- رسالة ماجستير، الثقافة عند مالك بن نبي، قراءة معرفية وإبستمولوجية، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- زكي ميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، دراسة تحليلية ونقدية، دار الفكر، دمشق، ط1 ، 1994.

- سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، دار النشر، بيروت ، لبنان ، ط1، 1993ص81
- عبد القادر بوعرفة، " الحضارة ومكر التاريخ"، منشورات مخبر الأبعاد القيمية للتحويلات الفكرية والسياسية بالجزائر، دار رياض العلوم الجزائر ط1، 2006 .
- عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير، في فكر مالك بن نبي (عالم الأفكار)، ط2، 2007.
- عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشهاب، الجزائر، ط2، 1984،
- عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1993، ص452.
- علوان عبد الكريم، الوسيط في القانون الدولي العام (حقوق الإنسان)، ط1، مكتبة دار الثقافة، عمان، 2004.
- عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، الشركة الجزائرية اللبنانية، ط1، 2009.
- عمر كامل، مسقاوي: حول فكر مالك بن نبي. دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1985.
- فائزة بوتلجة: مالك بن نبي وفلسفة البناء الحضاري بالبعد التربوي، أطروحة مقدمة للترشح لشهادة دكتوراه علوم في الفلسفة تخصص فلسفة عربية اسلامية، جامعة الجزائر، أبو القاسم سعد الله ، 2019.
- لويس معلوف: المنجد في اللغة والاعلام، دار دمشق ، بيروت، ط3، 1997، ص139.
- مالك ابن نبي ، مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، دمشق، الطبعة 1، 1969.
- مالك بن نبي : المسلم ومشكلة الإنسان المعاصر، مقال مخطوط نشر في موقع الشهاب للإعلام 2005
- مالك بن نبي : المسلم ومشكلة الإنسان المعاصر، مقال مخطوط نشر في موقع الشهاب للإعلام 2005..

- مالك بن نبي : فكرة الافريقية والآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، ت: عبد الصابور شاهين، دار الفكر ، دمشق، ط3، 1971.
- مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، بيروت، لبنان، ط3، 198.
- مالك بن نبي ، انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الرشاد، بيروت، ط1، 1969
- مالك بن نبي ، مجالس دمشق، ط2، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 2006.
- مالك بن نبي: " مذكرات شاهد القرن"، القسم الاول، [الطفل]، بإشراف ندوة فكر مالك بن نبي، دار الفكر دمشق، البرامكة، ط 2009، 6.
- مالك بن نبي: : مشكلة الحضارة، تأملات، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر دمشق، سورية، 2002.
- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر المعاصر، السلسلة: مشكلات الحضارة، دمشق سورية، 2006،
- مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، سلسلة : مشكلات الحضارة، دار الفكر المعاصر ، دمشق ، سورية، ط2، 1988.
- مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر، دمشق، ط1، 1989.
- مالك بن نبي: شروط النهضة" مشكلة الحضارة"، شركة النشر والاتصالات، تبيازة، 1992.
- مالك بن نبي: شروط النهضة، ت: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط1، 1989.
- مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر المعاصر، السلسلة: مشكلات الحضارة، دمشق سورية.
- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ت: بسام بركة، دار الفكر، دمشق، ط1، 1984.
- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق ، دار الفكر، ط16، 2014م.

- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق، الطبعة الرابعة ، 1984 دار الفكر، بيروت.
- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ط4، 1984.
- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق ، دار الفكر، ط9، 2012، ص27.
- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بيروت، ط1، 1959، ص198.
- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي،، دار الفكر المعاصر، السلسلة: مشكلات الحضارة، 1986.
- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، دمشق، ط1 ، 1969.
- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط3، 1986.
- مالك بن نبي، ورؤيته في الإصلاح الإجتماعي
- مالك، بن نبي: تأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي، دمشق، دار لفكر للطباعة والتوزيع والنشر، 1986.
- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4
- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، الجزائر، دار الفكر [بالتعاون مع دار الفكر بدمشق (سوريا)] ، 1984.
- محمد البغدادي: التربية والحضارة ، الجزائر، ط2، 2007.
- محمد التومي، المجتمع الإنساني في القرآن ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دار التونسية للنشر، ط2، 1990، ص151.
- محمد بغدادي باي، التربية والحضارة، بحث في مفهوم التربية طبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي، دار عالم الأفكار، الجزائر، ط1، 2006.

- محمد كامل حسين، في الأدب المسرحي (من العصور القديمة والوسطى) دار الثقافة ، بيروت (د.ط.ت).
- محمد مبارك: وجهة العالم الإسلامي لمالك بن نبي، 1959..
- محمد محمود شاكر: " في مهب المعركة لمالك بن نبي،
- موسى لحرش استراتيجية البناء الحضاري للعالم الاسلامي في فكر مالك بن نبي جامعة باجي مختار، الجزائر، سنة 2006.
- نظام بركات، مبادئ علم السياسة، مكتبة العبيكان، الرياض، 2008.
- نورة خالد السعد، " التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، 1997.
- يوسف كرم- تاريخ الفلسفة اليونانية- ط5 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة 1966 .

<https://al-maktaba.org/book/32345/10#p10>

-الندوي: أبو الحسن ، من روائع إقبال، 1978 ان ط2، دار القلم بيروت، لبنان.
/2 المراجع باللغة الفرنسية:

- Hésiode. La théogonie, les travaux et les jours et autres poèmes. Traduction : Philippe Brunet. Commentaires Marie – Christine Leclerc. Edition : Librairie Française.
- Hésiode. Op.cit, p 106, p 108.
- Hésiode. Op.cit, p 109.
- Edith Hamilton. La mythologie. Edition Marabout 1978, p 7
- Le petit Larousse illustrée ;2007,P251
- Rosnani H. Educational Dualism fu Maloysia. Implicatiotts Jor Theoty -and practice. zo04. Znd
- Edition. The Other Press. Kuala Lumpur. Malal.sia.p98/
- Bakar.o.MalikBennabi,sPhilosoplyofScience.199l.Papero,,,,,j#l,"i¹
- Seminar on Malik Bennabi. Univemiç Malay4 t<uala Lumpur, Malaysia.p3
- Rosenthal.F. Knowledge _Triuntphant. Tlrc concept of Knowledge in Medieval Islan.19l}. Leiden. E.J. Britt.

ملاحق

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف - المسيلة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

2021/2020

الملحق رقم 01



صورة نادرة لعائلة مالك بن نبي

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف - المسيلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
2021 /2020



مالك بن نبي -الطفل-

المصدر : جريدة الشروق اليومي، العدد3969 ، الجزائر 2013/03/19





قَسَمَ بِحَمْدِ اللَّهِ